

شريف بن حبيلس

الجزائر الفرنسية

كما يراها احد الأهالي

ترجمة الأساتذة
عبد الله حمادي
فيصل الأحمر
وسيلة بوسيس



شريف بن حبيلس

الجزائر الفرنسية

كما يراها احد الأهالي

ترجمة الأساتذة:

عبد الله حمادي

فيصل الأحمر

وسيلة بوسيس



العنوان : الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي

تأليف : شريف بن حبيلس

ترجمة : عبد الله حمادي – فيصل الأحمر – وسيلة بوسيس

ردمك : 978-9961-928-35-6

الإيداع القانوني : 5384-2012

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين.

بمناسبة الذكرى الخمسين «50» لعيد الاستقلال



" شرف فرنسا ومصلحتها يجبراننا على الاعتراف بضرورة تكوين المغلوب"

" إن ضرورة المعرفة لا تستوي في أبدا، فإذا تخلينا عن الأمر فإن الشعب المغزو سينهض بنفسه، ثم يختلق تكوينا، وتربية يتماشيان مع آماله ضد آمالنا "

"ريمون ايفار"

العمل الفرنسي في الجزائر"

" لابد من العمل الدؤوب على زرع بذرة مزدوجة على هذه الأرض الإفريقية شقها الأول قوة فرنسا وشقها الثاني فكرها، القوة التي تعوض نفسها تلقائيا والفكر الذي يقنع الغير، هذا هو واجب كل مسلم"

" أيها المسلمون، لا بد من الشروع في العمل حالا ، فلا مهرب من الاعتراف بأننا بلغنا الدرك الأسفل من أسفل أنواع الانحطاط.."

"بن موهوب"

" إن فرنسا تدعو بصدر رحب وعقل راجح كل من يعيش تحت سلطانها كي يساهم بما لديه من فكر وقوة، فلا يجب أن يكون

الهم الوحيد هو المحافظة على ميراثنا الوطني المجيد وتطويره في إطار إقليمها فحسب وفي فضاء الوطن الفرنسي وكفى. بل يجب نقل هذا الميراث إلى الآخرين"

"مسألة الأهالي في إفريقيا الشمالية"

التعليم والتكوين لدى الأهالي الجزائريين متخلفة ومعدة هي نفسها التي عرفها باقي العالم. التحضير لظهور العقل والتحرر على الأحقاد الدينية والتعصب"

"تعليم الأهالي، عصرنتهم، تحضيرهم، كل ذلك لا يستطيع أن يكون سوى عملية تقريب لهم منا"

Le temps الزمن

مقدمة

رسالـــة

صديقي العزيز، لكل رأيه اليوم في مسألة الأهالي وانطلاقا من هذا المبدأ توقعت أن لي رأيا أنا أيضا. ولم تكن على خطأ بل إن لدي آراء عدة لا رأيا واحدا فحسب، وقد يحدث لي أكثر من ذلك: أن أغير بعضا من هذه الآراء، لا من باب إزاحة الفكر حسب استيراتيجية ارنست رينان الذي يقول أننا إذا غيرنا رأينا باستمرار سنكون مرة واحدة على الأقل على صواب.

لكن من باب كون المسألة شديدة التعقيد، وزوايا النظر إليها عديدة، والحلول المقترحة متشابكة متداخلة لا ترتاح لوجه إلا وبباغتك وجه لا قبل لك به. فأنا انتهز فرصة عدم كوني مسؤولا عن إيجاد حلول بقوة لمنصبنا، فأشتغل على التفكير في الحلول الممكنة.

ثم إن رأيي في هذا المقام ليس عظيم الشأن، فرأيك هو المنتظر ظهوره إلى الضوء لا رأيي، وذلك عين العقل يا صديقي. فقد تحلّيت بما يجب من الكفاءة وتخلّيت عما يجب من الانفعالية ونظرت فأصبت، أنت الذي تكونت بعمق في مدارسنا ومعاهدنا، أنت الجزائري حتى النخاع، أراك أتيت هنا بخلاصة ملاحظات عميقة وأديت آراء خالية من التعصب ومن كل انفعال يفسد المنطق. فكيف يمكننا أن ننصت إليك؟

كيف لا نأخذ آراءك بعين الاعتبار في حين تكلمنا عن عالم تعرفه بقدر ما نظل بعيدين عنه ؟ ومن سيكشف عن خبايا زوايا هذا البيت خيرا مما تفعله أنت الساكن داخله في حين لا ترى نحن سوى جدرانه؟أية أحلام تسكن الفلاح، تحت برنوسه، وهو جالس أمام المقهى العربي على قارعة الطريق؟ وماذا عن ذلك البائع الذي ينتظر زبونا تقريبيا، دون أن يرغب في الأمر حقيقة ؟ وأية عيون وما طبيعتها، تلك التي ينظر بها صوب مهاراتنا الثقافية ؟ هل نبدو لهم أكثر إضرارا منا نفعا وأكثر جنونا منا عقلا؟ وحقد العدو الذي يملأهم، ترى هل يذهب بهم حد الرغبة في رؤيتنا نغادر هذه الأرض التي استثمرنا فيها جهودا كثيرة ؟

أنتم يا صديقي العزيز، وأمثالكم ممن رغبنا في إشراكهم في مهمتنا، هم الوحيدين الذين يمكنهم أن يجيبوا هذه الأسئلة، بكل صراحة.

بواسطة ثقافتكم، التي تأتي لتدعم أصلكم، تنتمون لما يمكن أن نسميه بكل شرعية " نخبة الأهالي ". إنها تسمية شرعية كما تعلمون. وهي تسمية تصف بالضبط ما يتعارف عليه الجميع من صفات " النخبة ": والمقصود طبعا اتصافها بصفات أوربية معينة، التي هي مكونة من بعض المحامين، بعض الأطباء الأشراف، وجيش هام من الصحفيين المهرة. كدت أنسى أكثرهم جدارة بالذكر، المدرسين الابتدائيين الذين هم واعون بالدور الحاسم المنوط بهم وبالمسؤولية الكبيرة التي ألقتها فرنسا على عاتقهم حينما جعلتهم يشغلون المحل الذي هم يشغلونه دون أدنى مسألة. إنهم يضيفون إلى النقاش حماسا خاصا يقلل تارة أوار الاندفاع المولع، وتارة حموضة الأحقاد.

إن النخبة التي تنتمون إليها والتي تبدو لي عنصرا حاسما في الربط بين الشعبين متشبعة بالثقافة العربية دون أن تكون منغلقة دون التكوين الفرنسي، إنكم على معرفة حميمية بما أنجزه كتاب عصركم الذهبي، دون أن تجهلوا ما أنتجه مؤلفونا من الأعمال الممتازة، دراية بالكلمات والتعابير الجميلة التي اخترعها

أسلافكم، والأفكار النيرة التي خلفها أسلافنا، ستجد، المحدث عن فرنسا لإخوانك الأقل حظا، تلك الفصاحة التي بمكنتها أن تسحر حتى الأكثر جهلا من بينهم، كما ستكون لك نصاعة الذهن ونقاء البصيرة التي لنا إذا جئتنا تشرح ما يعتمل بصدر هذا الأخير وإخوانه لك كل التقدير على أنك وفقت في الجمع بين هاتين الخصلتين في كتابك.

ولكن الشكر كل الشكر لك وحدك، لأنك تمكنت من ذلك بفضل حسنات هي لك وحدك، خاصة بك لا بغيرك : المنطق حب الحقيقة، إنك يا صديقي العزيز "ذهن فذ"، ولا أقولها كما يقولها المتملقون والرسميون على أيامنا بل أقولها بلسان مفكري وكتاب القرن السابع عشر.

إنكم لتحكمون بعدل وإنصاف على منجزات الإدارة الفرنسية، سوف لن تبالغوا في تهويل ما يمكن أن ينقص هذه الإنجازات كي تكون على أحسن وجه، إنكم تصفون لنا المفعول الحسن لأمن لا يفتأ يتحسن مقارنة مع ما هو عليه في أماكن أخرى وما كان عليه قبل الحملة الفرنسية. ثم إنكم تسلطون الضوء – إلى جانب الصراعات التي لا بد منها أثناء تموقع الشعوب الفرنسية على الأراضي القبائلية – على محاسن هذا النمط الجديد من العمل الذي يزيده عمال مختلفة ديانة بعضهم عن ديانة الآخر وأصل هؤلاء

عن أصل هؤلاء عن الحقل أو الفلوة، وعليهما هو طيب في الجوار الحسن للكوخ والمزرعة. إنكم تتحدثون لنا بصفتكم ملاحظا فذا، عن المدارس التي لا تنتظر الحكومة دائما كي تتكاثر وتزداد كثافة وعن اقتناع فلاحي جبال البابور بنجاعة التكوين! وهو اقتناع لا اختلاف بينه وبين ذاك المغروس في ذهن الفلاح الفرنسي، ثم إنكم تشرحون جيدا ميكانيزمات البلديات المختلطة مصورين أمام أعيننا صورة الإداري، هذا الإله المهيب مع طيبة، العجيب مع حكمة، الخفي مع ظهوره في كل مكان، وفي الوقت نفسه. ثم ترصدون دون تحيز ترتيبا للأعوان من الأهالي، هؤلاء "القياد" الذين يحملون نكهة زمان، وإذا كان العديد منهم ناجعا واعيا صاحب الضمير فإن عددا لا بأس به منهم ليسوا سوى ورثة الإدارة التركية بكل ما فيها من تعصب ومحسوبية.

وبعد أن تقلبوا لنا البرنوس العنابي الشريف كي نرى ما بداخله، تفضحون أيضا البرنوس الترابي بلطافة وخفة محدثين إيانا عن عامة الناس، من خلال رسم بورتريه لمحمد مبارك "البروليتاري" ضحية نظام الخماسين الذي أكل عليه الدهر وشرب، وضحية طيبته التي لا تعمل للغد حسابا، وضحية المقرضين الذين ينهشون لحمه تحت عيون مفتي المسلمين.

ثم تأتي صورة المتمدن الذي يعبر أمامنا: البورجوازي الغيور على إنسانية العتيقة والعدو الثقافي لكل تطور. ثم ابنه الشاب الجميل المتكبر الجاهل والأحمق الذي لا يجرجر حين يمشي في الشوارع سوى رضاه عن نفسه وهو لا يفعل شيئا سوى الاعتناء بلباسه الأنيق.

إن نظرتك التي يزيدها عمقا تكوينك الأوروبي ونظرتك المتأملة، لتتفقد وتتفحص المجتمع المسلم المحيط بك فتكشف عن أعضاء ميتة وقوى معطلة.

أخيرا، ولكي تحدثنا عن الشباب الحي الذي يطمح لبناء المدينة الجزائرية المستقبلية تجد نبرة صريحة تنسينا تماما النوايا السيئة المبيتة التي عودنا عليها جدلهم.

بفضلك يبتعد شبح الأمية الإسلامية – إن كانت موجودة- فتنشئ نحلم بغد أفضل. فترى يوما مضيئا يحمل للبعض نظرة أكثر انتباها وأكثر حنانا صوب حاجات الآخرين، ولهؤلاء يحمل قلقا أقل من المظالم التي تعودوا أن يلهجوا بها ومن المخاوف التي تسكنهم على غدهم، وتحمل لهؤلاء ولأولئك ثقة متبادلة أكبر، والإرادة التي لا بد أن نمتلئ بها كي تزودنا بـ " السلام على الأرض"

جورج مارسيه

مدير مدرسة تلمسان

الجزء الأول

تمهيد

كان الهدف هو تهدئة الأوضاع والمصالحة بين كل الأطراف حينما شُرع في المحاضرات التي احتضنتها نادي "صالح باي" بقسنطينة، والتي ألقاها، كما سيتضح، السيد "بن موهوب"، المفتي المالكي ومدرس الفلسفة الإسلامية بمدرسة قسنطينة "التي يعد جوهرتها اللامعة.

إن الفكرة العامة التي يمكن استخراجها من هذه المحاضرات بسيطة، رغم تعدد تقديمها في كل مرة، وتنوع أدوات أدائها. يمكننا أن نخلصها في هذه الكلمات: الحرب ضد الجهل، الحرب ضد التعصب.

في هذه المعركة التي قادها، والتي كان لنا حظ المساهمة فيها بين الحين والآخر كان السلاح الأقوى والأنجع هو: الفصاحة، فصاحة تختزل المسافة بين القلب والقلب.

لا بد من الإقرار بأن برنامج بن موهوب بسيط جدا، بسيط حد التميز. لا بد من الإقرار أيضا بأنه ليس ممن يعالجون الأمور الحرجة بذلك التفاؤل الذي يملأ أروقة مجالسنا الجزائرية. ويمكن تصديقي هنا، لأنني انطلق عن دراية وسابق معرفة. كما أنه بعيدا جدا عمن لا يلهج سوى بالظلم وغياب العدالة والتفاوت في الأرباح، ويدعو لسياسة العنف.

إن آراءه تشق طرقها بين هذين القطبين المتطرفين. لقد تعلم من دروس التاريخ ان تربية شعب ليست أمرا يتم بين عشية وضحاها، وأن الثورة الفكرية والاجتماعية لأمة " بلغت أدنى وأحط درجات التقهقر"[1] عمل يتطلب جهود قرون عديدة.

محاربة الجهل بواسطة المدرسة، وترك الباقي لمفعول الزمن، هذا هو الراي الحصيف لهذا الرجل الذي ضحى – إلى الآن – بنصف عمره من أجل تحرير إخوانه.

صحيح أن هذا البرنامج برنامج جامع. وضعية الأهالي، المحاكم الرادعة، الإنعاش المادي للأهالي، مجتمعات الوقاية، والقرض الزراعي، البنوك الشعبية، والنقابات المهنية، وغير ذلك،

1- بن موهوب.

كل هذا سيكون محلولا، وفي أقرب الآجال، بمجرد إنشاء مدارس!

أن حدة مشكل الجزائر الذي تطرحه العلاقات بين الشعوب المتعاملة والمختلطة في المستوطنة، لن تختفي بتطبيق هذه التدابير، بالتأكيد، ولكنها ستقل وينقص أوارها.

كثيرة هي المشاكل المحلولة، وكثيرة هي الحواجز والعوائق المذللة من خلال تطبيق هذا البرنامج المدرسي الشاسع، والجدير باستنهاض كل الهمم، وتحريك كل الإرادات وكل الطاقات.

وفي بوتقة الآراء والأفكار، ووسط ضجيج الأصوات المتجاورة والمتناوشة حول مسألة الأهالي، حبذا لو أن بعضا من البرلمانيين، الكتاب، الناشرين ورجال الأعمال سواء أكانوا من مناصري الأهالي أو من معارضيهم، يعودون صوب عملية التقريب بين العنصرين، كتأسيس مدارس جديدة، ذلك العمل الذي يزن أكثر "بكثير من كل الخطب الملقاة.

وقبل كل شيء، يبدو لي شخصيا، أنه قد كتب الكثير، لا أن المشكل المطروح لا يستحق كل هذه الأهمية، بالعكس، فمسألة الأهالي مسألة حياة أو موت بالنسبة للإعمار وللغلبة

الفرنسية في شمال إفريقيا. أقول، إن كتاب هؤلاء وأولئك على حد

سواء، يطبعها التعبير والعنف والكراهية.

إن الحكمة الفرنسية القديمة تقول لنا: إن صدام الأفكار

جالب للنور. هنا يوجد كثير من الحقيقة هنا، ولكنني أعتقد أن

بعث الشرارة لا يمكن أن تكون على أيدي الصم و العمي.

في كل هذا الجدل، الذي يستعر منذ أربع سنوات، بين

الذين يدافعون عن تواجد وغلبة فرنسا، وبين الجزائريين المدافعين

عن إخوانهم المسلمين المفترض كونهم مضطهدين... أعتقد أنه

كان هنالك الكثير من التعصب، وكثير من الحماس المحلي، و

كذلك من النوايا السيئة، فتارة يتم وصف معمر خبيث، يهتم

بالجرائد أكثر من اهتمامه بالأرض، أو ناشر عديم الضمير، أو

موظف حقير أو مخل بالواجب، أو مسيء للنظام، وغد، مضاد

للفرنسيين، إسلامي مشبوه أو ثوري تركي، هذه التسمية التي

راجت حد الجنون، وتارة يتم وصف مطربش ثائر ما يتشدق بكون

الأهالي ليسوا سوى قطيع كبير يسيره إداريو البلديات المختلطة

بالسياط، صوب ضياعه الأكيد.

الأعجب من هذا، أن تهم الجماعتين تجد دائما مصداقية،

ليس فقط على الطرف الآخر من البحر، بل هنا بالذات، أين

يمكننا أن نتأكد من صدق ما يقال. وبدقة ما يحدث. يبدو أن

الجماعتين، تحت غطاء الانحياز الأصم أصبحتا تستعملان عينيها

لكي لا تريا شيئا وأذنيها لكي لا تسمعا صوتا. فمن الواضح إذن

أن هنالك مبالغة في هذه الآراء، حماسة أعمى بكثير من إمكانية منح

فرصة التمحيص حتى للمعنيين بالأمر بل حتى للأذهان العادلة

المستقيمة؛ لذلك، هنا أكثر مما هو عليه الأمر في أي مكان آخر،

فإنه خطير جدا إتباع هؤلاء السياسيين في مهاوي نقاشاتهم

المتناقضة، إذا كنا نريد أن نمحص النظر لإدراك الحقيقة العارية

ستفيد الجميع معرفتها في الواقع الأمر.

نحن الملاحظين المستقلين، أبناء الأهالي، الذين عشنا وسط

الأهالي سواء تحت أكواخ جبال البابور العتيقة أو تحت سقوف

المتمدن " الحضري "، نعتقد أن هناك فائدة أكيدة في إصدار

حكم عام حول الإنجاز الفرنسي والإدارة التي اضطلعت بالمهمة

العسيرة التي هي تكوين وتعليم إخواننا وكذلك حول وضعهم

المادي والفكري هم بالذات كما هو الحال في السنة المباركة

.1913

هذا الحكم هو الاعتراف المتواضع لأحد الأهالي الجزائريين

الشباب، والذي تمت تربيته على مدرجات مدرسة فرنسية، شاب

بحسب النعت المجهل "فرنسي" الذي تلحقه به الإدارة الفرنسية، شاب يعتقد جازما أن فرنسا هي التي قادته صوب طريق "الحق"، فلا هو يريد أن يكون معتقدا مشيعا لمن أحسن اليه، كما هي حال بعض ناكري الجميل، ولا هو يريد أن يكون متملق أقوياء المرحلة الآنية هي فقط، التعبير عن إحساسه بالجميل. فهو يريد أن يضع لبنته على البناء الضخم الذي تواصل الجمهورية الثالثة – بشيء من حماس المتسرع أحيانا، وكثير من النجاعة في أكثر الأحيان – تشييده على الأراضي الجزائرية.

سواء أخاطئة، متسرعة، ذات ثغرات، أم ليست كذلك، ستكون هذه الشهادة حاملة للاستحقاق الذي لا ريب فيه الذي يشيد به بصوت عال الحقيقة والصراحة

الفصل الأول

" الأمــن"

بادنا دي بدء، ما هي عملية المصالحة بين الأفراد التي شرع فيها؟ ليست عملية بل عمليات، وهي عديدة ومتنوعة وربما تكون أكثرهن ذكرا من قبل الجميع، جاهلهم وعالمهم، غبيهم وفقيرهم، كلهم يمدحون الانجازات في الجانب الأمني

منذ أجيال كثيرة والجزائر عش حقيقي للأشرار وقطاع الطرق والقراصنة، ولم نعرف استتباب الأمن إلا منذ أن صارت أرضا فرنسية.

قديما، كان السطو والعدوان والمعارك الزاد اليومي لكل القبائل ولكل المقاطعات، باشاغا الحضنة على خلاف مع باشاغا المجانة، وهذا الأخير بينه وبين جاره في الأوراس حزازات، ومن القالة إلى سي صدف لا يوجد مقاطعتان حاكما هما على وئام ووفاق.

الاضطراب: تلك هي حال المسلمين اللصوص، اللصوص، في ظل وصاية المعلية في شمال لإفريقيا وذلك وضعهم الاجتماعي في ظل وصاية الحكومة التركية المحرمة لكي لا نذكر سوى آخر حكومة عرفتنا هذه الأراضي.

إن التاريخ يخبرنا بالكثير في هذا الصدد. فلسنا بحاجة، في الحقيقة، لإجراء دراسات معمقة كي نرى أن التجارة والزراعة كانتا منعدمتين. فلماذا يزرع الفلاح أرضه إذا كان مصير الغلة السرقة والنهب؟ ولماذا نتاجر إذا كانت الأموال المحصلة تؤول آجلا أو عاجلا إلى خزائن الحكم؟ ويجب بالموازاة أن نتذكر بأن هذه الحالة قد استمرت مطولا حتى بعد دخول الفرنسيين إلى الجزائر، إما بسبب العجز على مستوى أدوات الردع والحماية، وإما بسبب سياقات ديبلوماسية معينة بوعكاز بن عاشور حاكم فرجيوة، مثلا، واصل – حتى يوم تهجيره – ممارسة حق القتل على رعاياه. فكان يحدث أن يرمي بعصيبه في واد بوصلاح لمجرد غيابهم عن الاجتماع مثلا.

من يا ترى سيكتب التاريخ الكئيب لأولئك المساكين الذين ذبحوا دون أدنى محاكمة لا لسبب سوى أنهم – مثلا – أعجبوا إحدى "حوريات" قبيلة الطاغية. إنه ليبدو لعابر بعض المناطق أن صوت أولئك الضحايا المساكين مختلط بشكل ما بخرير المياه.

القصص تنقل عن بوعكاز انه ذات يوم وقد أحد ممكن الجلاد أراد قتل أحد فلاحي بني مجلد متهما إياه بالعصيان. استحضره كالعادة طليق اليدين وحدث أنه ساعة رميه في الهاوية تشبث بأثواب الحاكم فكاد يجرجره معه في الهاوية لولا أن أسعفه رجاله وأعوانه. فما كان منه نتيجة لذلك إلا أن قرر مستقبلا أن يوضع الضحية وسط كيس مغلق قبل تقديمها لتطبيق الحكم بالإعدام.

إن من عايشوا فترة ذلك الوحش الذي زرع الرعب في قلوب سكان تلك المنطقة التي تعد من أخصب المناطق في ضواحي قسنطينة، لازالوا يرتعشون لمجرد ذكر اسمه. سمعت كثيرا من شهود العيان ممن يحدثوننا عن فترة سابقة – ويحضرني هنا أحد الأجداد بلغت به السن سبعا وتسعين، كان قديما من الخدم – فترة كان يمكن للمرء فيها أن يسافر بمائة من البهائم محملة كلها من ميلة إلى سطيف، ويمكنه ليلا أن يقبع في أي مكان وسط الحقول في انتظار الفجر لمواصلة السير. سمعت من يشهد بذلك، وشهادته حقيقية، إلا أن هذا لا يمنع كون بوعكاز أكبر لصوص المملكة وأخطرهم.

نتيجة لذلك - أن ينظروا بعين الحسرة صوب

الأهالي وحتى هؤلاء الذين سيقولون دفاعا عن

تلك الفترة لا طعن في مقارنة بين وضعية قبل 1830 وبعدها. تعطي

حوتهم في الذين أن الدولة القديمة، هؤلاء ليسوا سوى مرتشين للحصانة

يستنتج بحوق ولكنهم لا يمكن تصديق ربهم وبالموازاة فإن تعداد حوادث

السرقة والسطو وباقي الجرائم، ورصد كل شاردة وواردة من

حوادث ثم الحاق مسؤولية ذلك بحوزتها البرلمانيين ذوي الميل

صوب الأهالي كل هذا لن يكون أمر خاليا من سر كامن وبه

نية مبيتة وحكم مسبق غير عادل فإن بونو Bonnot وجماعته

غرابيي بيمو من أهالي الجزائر ومن هذه الرؤية

بالذات لا يوجد فضل لأحد على الآخر، الفرنسيون والإيطاليون

من جهة والبربر من جهة أخرى يقفون في هذا الموقف على قدم

المساواة.

من أي علو شئنا نظر إليه، يبدو المجتمع البشري حاويا

للعناصر الفاسدة دائما، وفيما عدا هذا الاعتبار فإن أية حكومة

تعجز عن ضمان الأمن والسلامة لرعاياها تصبح محل انتقاد

منطقي من قبل أي ذهن واع عادل هذا الأمر لا نقاش فيه

إن الذين يكثرون الحاجة وهم يمسون بحوافهم ويحصون

الحوادث والجنح معتقدين أنهم يخدمون مصالح فرنسا لا يفعلون

سوى الأضرار بها في الحقيقة.

من حسن حظهم وحسن حظنا أن الحقيقة غير ما يقولون، إنهم

يضخمون هذه الحوادث بلم شملها وتعدادها في الوقت نفسه على

القائمة نفسها، أما الحقيقة فهي أن عدد الجرائم يزول إلى

النقصان، وأن الجنح تتحول إلى القلة لا الكثرة، لذلك نقول أن

الفضل الأمن يظل أحد أهم الإنجازات الفرنسية على هذه

الأرض.

بالإضافة إلى الاعتبارات الاقتصادية التي جلبها الاستقرار

الأمني فإن الأهالي أصبحوا يرون بأن هذا الأخير علامة الدولة

الفرنسية، سبب من أسباب الإعجاب بالنسبة إليهم وهو تمهيد

جيد لخلق عاطفة الحب بدلا من الإعجاب، حب هذه التي منحتهم

وضعا أمنا مستقرا، لذلك فخدمة الأمن والعمل على استتباب

الأوضاع واستقرارها هو عمل على الدمج الجيد للأهالي وتكييفهم

وإستيعابهم

وضعية الأمن وقضايا من هم هؤلاء الذين توكل إليهم مهمة

خدمة الأمن والحفاظ عليه والسهر على استمراره

الفرنسيون والأهالي مسئولون معا عن هذا الأمر، ولكن الإدارة الفرنسية تبقى عرضة للانتقاد في هذه النقطة، لأن العمل نفسه يجازى للأسف الشديد بأجرين مختلفين

وإليه لظلمه في الأول كي نصححها خذوا مثلا الشرطة البلدية لأية مدينة جزائرية، ولننظر عن كثب إلى ما يتقاضاه الموظفون المنتمون إليها، محمد بن علي الموظف المتحمس الذي يحبه ويحترمه رؤساؤه ومسؤولوه، ويثقون به ثقة كبيرة تفوق ما يتمتع به زميله الفرنسي فرانسوا البيرني، ومع ذلك فالميزان المالي يميل جهة هذا الأخير إن التفضيل الذي يتمتع به الأهالي جاء بفضل العمل الدؤوب في حين الأفضلية المالية التي للفرنسي على صاحبه لا شيء يبررها. والوضع نفسه يعانيه أعوان الدرك من الأهالي وكذلك الموظفون الإداريون.

لماذا هذا الظلم؟ الإجابة يملكها مواطنو هذا البلد في الحقيقة

المعمر العامل سيقول طبعا أن المؤسسة بحاجة إلى تعديل، سيملي عليه تفكيره المنطقي بأن ما كان صحيحا بالأمس لم يعد كذلك اليوم. سيقول أنه على المؤسسة أن تعبر عن امتنانها تجاه خدمها الأوفياء الذين لا غنى لنا اليوم عنهم.

أما المعمر المسن فسيقول إن الموظف الساكن الأصلي يعيش حياة بسيطة وإن حاجاته ليست كحاجات الموظف الأوروبي، وبعد سويعة سيكون النقاش قد أتم دورته الاعتيادية بين المبررات المكرورة المعادة، سيقول لمن يبرر التفاوت بنمطي معيشة مختلفين الأجور محكومة بالجهود المبذولة، والتفاوت في الضرائب مقبول لسبب بسيط هو أن الجهود الفرنسية على هذه الأرض من طرق ومدارس، وسكك حديدية، وقصور بنتها، من أسواق، وباخورات، ... كل هذا له ثمن. لذلك لا ينكر الساكن الأصلي أن ظروف العيش الأفضل هذه تحتاج إلى تضحيات منه لأنه لفائدته هو بالدرجة الأولى

التفاوت في الحقوق، لا أحد يقبله، لا نحن ولا حتى أنتم، على كل حال سوف نعود لمعالجة هذه النقطة أما العمل نفسه فيقتضي الأجر نفسه. هذا هو المبدأ الأساسي الذي على الإدارة أن تنطلق منه وتعمل به وهي تحدد أجور عمالها.

وقد تم تطبيق مبدأ المساواة هذا في بعض الإدارات بنتائج جيدة محصلة ونجاح لا ريب فيه الرجال لا يتم تسييرهم إلا من زاوية مصالحهم الخاصة. قد نتسرع ونحن نجزم أنه منذ مدة، يُلاحظ تفضيل واضح للعمال من الأهالي وتغيير أكيد لوجهة النظر صوبهم، إنه خير دليل على مزايا الإدارة الحسنة ونيتها في مواجهة أخطائها

و العنوف بها يطالبه فضحى حيثما تسمع عن التعسف الاداري
والحروق التي تشهد هذه وهنالك تجري أحسست بهذا التحول الذي
يلاحظ بسواواة مع مجتمع هذا البلد ، وبعد قطع من المراحل، وما هو
مستمر من فراغ النقلة المرجوة

الفصل الثاني

"التعميـر"

إنجاز آخر من إنجازات المصالحة التي نحن بصددها، والتي لا يستهان بها هو التعمير، ففي الحقول تحت أمطار الشتاء وبرده القارص، أو تحت سياط الحر الصيفي، يتم عموما الاحتكاك بين المعمرين والأهالي ويتم التعايش السلمي، ولا يوجد مكان آخر يتم التعايش فيه بمثل هذا الشكل ولا بمثل هذه الخصوبة

في هذا الأمر لا توجد نقاشات مشعبة، طوال النهار تتضافر الجهود بكل أخوة من أجل تقليب وجه الأرض، وفي المساء، متعبين ومرهقين، يتفرق الرجال كل صوب ناحيته بعد تبادل سلام على النمط العربي، وبعد مصافحة قوية تليق بالفلاحين، لن نجد مكانا آخر يذيب الحواجز بين هؤلاء وأولئك أكثر من هذا المكان، فالمصلحة المشتركة والمصير المتقاسم يجعلان تقاليد العمل وسيرته أهم من كل اعتبارات أخرى.

كل شيء مشترك بين هؤلاء الرجال الذين وضع القدر بعضهم إلى جانب بعض، بمجرد احتباس المطر مثلا، تجد هذه الوجوه التي خالف بينها الزمن والمكان، والتي حمل مصير السلاح بعضهم قبالة

بعض تحتها مكفهرة لاكفهرار بعضه، وبمجرد هزيم الرعد –
أيام الحصاد – تحت الوجوه التي يحتمي بعضها تحت الحوذة وبعضها
تحت المشر فتشد بعضها إلى بعض وانغلق دهشتها وتجعلها تلتفت
حفيف صوت المنجل، بعيون مفتوحة كأنها تتساءل طيلة ساعات الهزيم
عن كل هذه الشساعة

إنها الانشغالات نفسها تجمع الطرفين فسعادة هذا أو شقاوة
نفسه فرح لآخر أو حزنه أين يا ترى يمكننا أن نجد مصالحة
أكبر من هذه وأكثر حميمية؟ إلى من سيؤول المعمر دون الأهالي؟
كيف يمكن أن معمر وحده يمكنه أن يفعل دون هذا الخزان الهائل
من اليد العاملة؟

أحد معمري منطقة سطيف – وهي من أخصب مناطق البلاد –
قال لأحد عمال الأرض الفلاحين الذي وصل للتحقيق حول أسباب الهجرة
لكشف صوب سوريا إن لم تجدوا حلا جادا لمسألة الأهالي
ومحربتهم فما علينا سوى جمع أمتعتنا والرجوع من حيث أتينا". إنه
اعتراف صريح وقوي يستحق كل مقول تخول له نفسه نكران
فضل الأهالي في دفع عجلة التنمية الاقتصادية

من جهة أخرى، من دفع هؤلاء إلى العمل، وغير ذهنيتهم في
بعض ما به هذا المعمر الآتي من وراء البحار لا يحمل معه إلا نيته

الغويه في أغلب الأحيان، هذا المغامر الذي جاء وتمركز وسط أناس
لا يعرف لغتهم ولا ذهنيتهم، ولا عاداتهم، والذي واجه ألف عسر
وعسر، وحرم نفسه من كثير من الأشياء كي يشكل له حلقة
حيويه، وبيننا على هذه الأرض التي انتهى به الأمر إلى احتضانها
كأنها وطن ثان؟

من لدى علمنا طرق الزراعة الحديثة؟ من أحدث الارتفاع لدى
مراه في أجور عمال الحقول إن لم يكن المعمر؟

من يجرؤ على نكران فضل هذه الشراكة ؟

لا تكون أمة جديرة بالأرض والطبيعة التي ورثتها إلا إذا عملت
بجهودها وصوتها على جعلها أفضل مما كانت عليه" كما قال
راسكن

لهذا نرى غرسا جديرة بالتراب الجزائري بفضل أعمال أبنائه
وانجازاتهم، تأملوا هذه الأعمال وستجدون كل شيء يتحدث عن
تحول مستمر، الريف لدى كل زوارا صار يزدان بالمحاصيل
الخصبة والجبال تركت جدبها لصالح خضرة جديدة وجميلة،
والمناطق الجافة، ثم الهضاب التي كانت مستعصية تماما على
العابرين، ها هي اليوم ترتبط بينها الجسور المتينة، وهذه المساحات لم
تكن فيها سوى الساحات البرية القديمة، والتي لا تجد فيها سوى مربع

مكتسب من العليق والعناب البري. تحولت اليوم إلى قرى جميلة يشرفها

سم حد علماء فرنسا ويزينها شجر البرتقال واليوسفي بثماره المذهبة

والصحو التي لم تكن تعرف شيئا سوى هجمات الأمواج

التعرية العميقة صحت اليوم موانئ واسعة ومراسي غنية تحتضن

الحور تحيط بحيرات والكور التي لا تعرف أهي ملك لساكن

حسن م لمعمر

في خطبة بليغة لا تنسى قال السيد فوادري*: "هنالك مثال لا نمل ضربه ولا نكرر ضربه، لأنه دليل على الصمود الفرنسي، أقصد بوفاريك التي تقع في أنفس المواقع من "المتيجة"، في نقطة التقاطع بين مياه الهابطة من الأطلس والمياه الصاعدة من ساحل الجزائر، بوفاريك لم تكن في 1830 سوى مستنقع وسخ، نشئت فيها مدينة، تحولت مع الوقت إلى مستنقع للموت

في عام 1841 أحدث الحمى 106 معمرا من مجموع 450 معمرا مركزين هناك. عام 1842، أحدث 42 من 300، وتجدد سكان منطقة عدة مرات. إلا أنه في عام 1856 بدأ معدل الازدياد يفوق معدل الوفيات. وبعد عدة سنوات أخرى، عام 1870 صارت بوفاريك تذكر كأحد أحسن الأماكن في الجزائر. .. أما اليوم، فالمدينة وما جاورها

* [illegible] الخطبة في ثانوية قسنطينة بمناسبة توزيع الجوائز سنة 190[illegible]

تكاد تكون محمية تماما تحت أشجار الأوكاليبتوس الضخمة، وأوراق الدلب الظليلة، والسراخس السوداء، والجوز الباسق، والصفصاف الكثيف الرشيق

لا شك أن أعمال الصرف الصحي والتطهير هذه قد شغلت اليد العاملة من الأهالي شهورا وشهورا ها هو ذا مثال الجهود المتضافرة التي نتحدث عنها، أليس هذا الإنجاز مثالا جديرا بالتذكير؟ أليست هذه الإنجازات هي التي ترسخ الصلات الأقوى والأكثر حميمية بين الطرفين؟

إذا ما نظر إليها من هذه الزاوية، تصير أعمال التعمير في رأينا أفضل أعمال المصالحة ويصير تعداد فضائلها غير ممكن لكثرتها، إننا نجتهد كثيرا كي نقول ما عمه الجميع وما يدركه كل ذي منطق سليم وعقل حف. لقد جلبت – هنا – الثراء للبعض والظروف الحسنة للجميع، وخاصة إذا نظرنا من الجانب الصحي

وربما يكون أهم النتائج هو جعل الأهالي يفكرون في وضعيتهم ويعيدون جمع حساباتهم ليخرجوا من حالة الشلل التام الملم بهم، إن استعمال الآلات الزراعية غدا أكثر انتشارا، فهناك أكثر من 30000 محراث تجوب أراضي العرب والقبائل، وإذا كانت هذه الأخيرة قد خلقت حاجات أكثر فإن المداخيل والأجور قد تزايدت تزايدا هاما، ثم

الفلاح وبعض حواز المعمر الفرنسي، قد أصبح يلبس لباسا أفضل مما هو معتاد عنده من "هدوار" و"قشعة" وما شابه ذلك، والاستهلاك العام للمواد الغذائية التي يبيعها المعمر لا يفتأ يتزايد مثبتا تعوّد كثير منهم منذ ثلاثين سنة فقط لم تكن تجد القهوة والسكر والصابون الأسود مثله من المعلبات ميسورة الحال. أما اليوم فإنا نجد محسوسة بحسب حمه برحاله وفي أكواخ الفلاح

تحول كامل في ذوات الفلاحة، ازدياد ملموس لقطعان الغنم والمواشي، ارتفاع محسوس في الدخل الفردي للفلاح، تطهير أراضي الزراعة وتحسين عطائها، وبكلمة واحدة: توسيع دائرة الثروة المحلية

من جهة أخرى نجد أن التعمير قد عبر المقلبات بأن فرض أسئلة على الأهالي تدعو إلى البحث في أشياء لم تكن مركزا لأي تساؤل من قبل. إن شبكة القرى الأوروبية التي لا تفتأ تزداد عددا تزرع في أذهان الأهالي الاقتناع القوي بأن التعمير والتواجد الأوروبي في بلادهم قدر لا مفر منه، وشيء نهائي لا مرجع منه، إنه مشهد يدفعهم إلى الإيمان بقبول تواجدنا على أرضهم كقدر محتوم، إنهم بذلك يلقون بأنه لا مستقبل أمامهم إلا بين أحضان المجتمع الذي يرونه يتشكل

حواليهم، ويجعلهم يتحولون إلى تبع طيعين من تلقاء أنفسهم من رضاء رغباتهم وتطلعاتهم"(1)

لا شيء أصح من كلمات هذا الفرنسي المحق لعدله، وربما وجب أن أضيف بأن شعور الأهالي هذا لا يمارحه أي سخط على هذا الحال، بالعكس، إنه فتنع يملؤه الشعور بالاحترام والإكبار وحتى الإعجاب.

هذا عن الآثار المحسبة لعملية التعمير وثورها الحتمية

إلا أن هذا النجاح لا يمنع توجيه لوم، بل لوم حاد وخطير، وأهم ما تلام عليه الحركة هضم مصالح الملاك الصغار لفائدة ملاك كبار وأقوياء، وهي مضاربة خطيرة عمت مررا على إفقار الأهالي وإسقاطهم في العوز، بل هي مضاربات لا ينجو منها حتى المعمر الصغير، ويبدو أن الإدارة عاجزة تماما عن حماية الساكن الأصلي من أطماع السماسرة والمضاربين المحيطين به والذين يتسلطون عليه وعلى ابن جلدته الأقوى من الأول وأكثر استعدادا للمواجهة والصراع، إنه قانون التنافس الحيوي، اللامبالاة الطبيعية لدى إخواننا، فقدان الأمل العابر الذي يصيب أحيانا المعمر المتواضع، كلاهما يصدم بضراوة جشع المضارب وحب الربح.

---

(1) Le temp «Comment Organiser l'afrique Du Nord» P 26

وبعد أن تبيع قطعة الأرض، يجد المعمر نفسه مهاجرا إلى المدينة
ليعيش بها أكثر تواضعا، في مساكن لا تشبه الذي لم يكن به
طوال حياته غير أجر سوى الفلاحة فيتحول إلى شماس ترصده
وتهدده الفقر والحرمان. ولا يجد عموما سوى هذه الكبيرة
التي عليه لسماء الإدارة للاستفادة ولإفراغ جام غضبهما. في حين لا
تنتهي هذه المسكينة في سلاح ... للجشع والطمع ولمحاربة عديمة
المنفعة ... الفصل الأخير فيتمثل في هجرة الأهلي تحت راية الوعود
الزائفة نحو القصر من مشرق، يجره إيمانه تارة وأحلامه تارة أخرى

فبعد وصف قدماه الأرض المباركة اكتشف الخديعة الكبرى
التي وقع فيها، وانبرى بسرعة يكتب بلغته الجميلة رسالة إلى السيد
القاضي سبيل الكريم فتحي فرسب من أجل طلب إعادة ترحيله إلى
الجزائر

ما الذي ينبغي فعله لتجنيب الأهلي كل هذا الهوان ؟ ما الحل
المقترح؟ لست أكثر دراية – في حقيقة – من الإدارة العامة بهذا الأمر.

ها نحن أولاء نختتم هذا الفصل، ويبقى البتُّ في أمر مدى استفادة
الأهالي من هذه الامتيازات، وهل فعلا فعل كل أمر من شأنه تذويب
الفوارق بين الأهالي والمعمرين، أم أن هناك عثرات تزيد هوة التفرقة
أكبر سواء على المستوى المادي أم المعنوي ؟

ولنتذكر قصة آلاف الرحل وأولئك الذين تم طردهم صوب
الجنوب، مشكل عويص لا يزال بعضه يؤرق الإدارة لحد تربته المنوطة
بها مهمة المحافظة على التوازن بين العناصر المشكلة لمختلف أرجاء
المعمرة. لا نملك أبدا الرأي في هذا الأمر، وربما تكون بعض
التجارب متاحة في وقت محدد كي نحتفظ بها ونبدي فيها الرأي
الصواب الذي ستكون السنون قد شحذته.

أما هذا الفصل فلا يطمح إلى أكثر من بيان بعض الوجوه التي
تمكنها جعل المعمرة فضاء للمصالحة والحرية

الفصل الثالث

"المدرسة"

لكي نحري إصلاحات على المستوى المادي لحياة الأهالي، دون المساس بالمصالحة بين سكان الجزائر اقتصاديا خاصة، اتخذت الإدارة الفرنسية تدابير عدة وقفنا منها عند أثنين ظهرا لنا هامين، وملموسي النتائج: الأمن، والتعمير، وكلاهما يخلق العلاقات بين الأهالي والأوربيين ويسهل أمرها ويقويها ويطورها.

إلا أن الاكتفاء بهذين الأمرين فقط من أجل تحرير هذا الشعب وتنميته والرقي بمستواه، يعد نقصا في كرم أمة متحضرة كفرنسا، كان لا بد، من أجل التقريب بين الناس ولم شملهم والتوحيد بين تطلعاتهم، وترقية معاملاتهم، كان لا بد من غزو العقول غزوا أخلاقيا معنويا.

هذه المهمة شجاعة وعسيرة، فتربية شعب كشعبنا الذي غاص في مجاهيل الجهالة طيلة قرون ليس أمرا يسيرا، ومهما يكن الأمر فالإدارة الفرنسية قد انطلقت في هذه المهمة التي فرضت نفسها – في الواقع – لسببين اثنين.

من جهة كانت الدولة بحاجة إلى أعداد كبيرة من الموظفين من الأهالي من حق التمكن من تسيير أمور هذه الكتل الكبيرة من الجماهير التي لا تعي أوروبا جيدا عقليتها، ومن الجهة الأخرى. مهمة فرنسية أوروبية مهمة حضارية، ولا يوجد تمدن دون تربية وتكوين أي دون تعليم عميم لنيل المطلوب.

فما هو مصير هذا التعليم ؟ كيف تعامل معه الأهالي هنا ؟ وماذا كانت نتائجه؟

هذا ما نريد بحثه لن نجيب السؤال الأول، ولن نبحث في أمر تنظيم هذا التعليم لأن الجميع يعرف أمره، ويراه ويراوده فيتعرف على برامجه في الثانويات، في الكليات، في "المدارس"، في الابتدائيات وحتى في مدارس الأكواخ التي يعتني بها في كثير من الأحيان الأهالي بأنفسهم بل وينفقون عليها من لدنهم، بسبب ملاحظتهم عجز الإدارة الفرنسية عن احتواء كل طالبي العلم، وعن التكفل المادي بهم.

هدفنا في الحقيقة هو البحث عن التطور الذي سجلته مهمة التعليم طيلة الثمانين سنة التي رفرف فيها العلم ثلاثي الألوان على التراب الجزائري، لذلك سنقول كل الحقيقة حول السؤالين الثاني والثالث المطروحين أعلاه

إن شعبا قد بلغ مثلما نكرر على مسامعنا الحملة التي صارت شهيرة أقصى درجات التقهقر، وأدنى مواقع التخلف، لم يكن يستطيع، ولم يستطع أن يكون عند المستوى المنشود من قبل الفقراء الذين يعلون صوتهم السخي بضرورة تكوين الشعب المغرور وتعليمه هيهات هيهات! ما أبعد ذلك الأمر عن الواقع! إن عقلية مسلمي الجزائر ظلت طويلا معارضة شرسة لفكرة دراسة اللغة الفرنسية، وحتى إذا كان مرور الوقت، وتطور العلاقات بين الأهالي والأوروبيين، ورقة الصلات بينهم قد عملت كلها على خلق مدعمين ومناصرين، فإن أعداء كثيرين لا يزالون على الصمة لمقاتلة

هل يمكن القول إن أغلبية الأهالي رافضة للمدرسة ؟ لا نعتقد أن مرد المسألة إلى الشعور، إن الإنسان في مثل هذه المسائل تابع لحاجته. والحاصل أن الجزائري لا يجد الحاجة إلى التعليم. لذلك فدفعه أو إغراؤه بالتعليم يجب أن يتم من قبل السلطات بوساطة خلق الحاجة إلى التعليم.

ثم إن الملاحظ هو أن تواجد المدرس الفرنسية لم يعد يقابل بتلك الحظوة القديمة. القاضي الناطق بحكمه وسط الجموع إثر المرافعة، مساعد الطبيب المداوي في عيادته، المدرس الذي يعلم أبناء "الدوار"، الخوجة الذي يترجم الوثائق في مكتب الحاكم، الوكيل المدافع في المحكمة العادلة المسالمة. كل هؤلاء أصبحوا يبدون للملاح الأمي

باس كمسبو عمرف حوب نهم شغل هده المناصب النوعية دار

مسطه بحمب

عقد ان هد تحقيق كبير وانحار دو مال.

هده الامثلة والنمادج تعرو عقلية الفلاح وتعيرها شيئا فشيئا، إنها مثله حيه وهي أقوى من كل حطاب نظري يمكننا التوسع فيه.

وحتى إن كان يواصل عدم إرسال أولاده إلى المدرسه، فإن هدا لا يعني شعوره بالهيب هده الأحيرة ويسعى أن نقر بعد كل هدا بأن سكن لأصبي لا يشعر بأيه فائده للمدرسه فيما وراء المصلحه و فائده لمنموسه المباشرة، إنه لا يعي شيئا غير هذا، والتعليم الذي لا يعود على المعلم بالفائده بعد مجرد عمل يثقل صاحبه وكمي، أو حيه سرين لا فائده منه. مد المؤسف حقا فهو أن نجد أبناء الطبقات الراقيه أيضا عديمي الإيمان بالتعليم لذات التعلم، إنهم يضعون التكوين في المرتبه الثانيه بعد المال، وهنا تكون فثالة مشكلة أهلية 100% ابوطنيه

فالفلاح الذي يمتلك منه هكتار ولا يملك سوى ابن واحد فقط، لا يمكنه بأيه حال من الأحوال أن يحوله إلى فلاح، سيعمل كل ما بوسعه لدفعه كي يصبح "موظفا"، حارسا بلديا مثلا، وذلك عوض أن يجعله مساعد له، في الفلاحة، مساعدا أكثر تكوينا

وأكثر شجاعة طبعا من والده. ذلك هو الواقع الذي نعرفه جيدا للأسف الشديد.

لقد صادفت فلاحا قبائليا، نجح في فلاحته، وعندما بلغ درجة معينة من اليسر والراحه المادية وجدناه شديد التحسر على أن أحد أبنائه مجرد محام لدى محكمة جزائرية، كان يتمناه "عادل" أو ممثلا للمرضى، أو حتى "قايدا" الخ، مثل أخيه الأكبر لدي ينعم بجزء هام من السلطة الإدارية والقضائية

أما موفاطو (محامي) وطبيب، فليست مما يثلج صدره، فقد كان يواجه كل محاولاتنا للشرح والإقناع بهز، عنيده ولا مبالية بكتفيه في الآن هكذا يقوم بدوره مسجلا نجاحا أكثر من نجاح السيد المذكور في ميدان عمله

الانتماء إلى الإدارة، امتلاك السلطة، ولو جزءا تافها من السلطة، ثم التسلط على أبناء ديانته، إنه ذلك الميل الإسلامي الذي لا شك فيه، وهو نفسه الميل الذي يدفع أحوت الأهالي صوب المدرسة الفرنسية

وحتى إن كان سببا حقيرا، فإنه أهم سبب يدفعنا صوب التكوين والتعلم. أما ما يجب أن ننتبه له فهو ألا نترك الأهلي المتخرج دون عمل، لأن مفعول ذلك على الجموع سيكون كارثة، ومع ذلك

... لا نستطيع أن نحمل كل أبناء مدرسة
... من الأهالي ... ولا بد هؤلاء المدارس على درب التحرر والتقدم
المتخرجين ... من هذه الإطارات الحلول من هذه الإدارة إنه من عسير
... من ... لا ... لا ريب
... ولا ... ولا ... ونفعه ... لا ... لا ريب

هذه ... تظهر في المدارس ظاهرة البطالة عن
العمل ... من المتخرجين فهنا سنوات وحدها على هؤلاء ملحة
جيدة في التعرف ... ويمكن أن ... سيؤول الأمر بعد سنوات
... العاملة المحلية؟ لا بد من
التفكير في الأمور ... وعن مدى ... هذا هو التحدي الماثل
... حتى وإن كان ... يعني أن يكون الأهالي ...
... نحو المدرسة بأعداد كبيرة ولا ينفي - بالموازاة - أن
الأهالي ... تلك الكتلة الكبيرة العاطلة المشلولة السلبية
التي ... معروفة ... هناك مواقف مع المعمرة تعرف
نشاطا ... في البعض في حين يملأ الكسل والتثاقل مواقع أخرى
ولا بد - من حق الإنصاف - أن نتساءل ماذا يمثل في حياة أمة
فرد واحد من التربية والتوعية؟ عليه مواصلة المعركة التربوية في
المدرسة، من أجل نقل عدوى لإخوة الآخرين الذين قطعوا أشواطا
هامة في هذه المسيرة، وسنرى القبس المدرسي يغزو بيوت الأهالي
وعقولهم.

وربما وجب تشديد اللهجة على ضرورة احترام الحياد الديني في
البرامج من أجل تجنب كل حساسية في المدرسة، ولن يطول الزمن
الذي تبطل فيه تماما المزاعم القائلة أن مدرجات ومقاعد المدارس
الفرنسية فارغة تماما، والتي يروج لها الساسة الذين تطلعهم
الأحكام المسبقة والنوايا المريبة المبيتة.

كتب السيد ريمون إينار Raymond Aynard صاحب الرأي
الحصيف الجدير بالاحترام: "خلافا لما يكرر المتقولون مقولة أن
مدارسنا في الجزائر فارغة تماما في أيام التفتيش، والحقيقة التي
تأتي من الشهادات غير المتطرفة والإنسانية - لبعض الإداريين
الذين لا ناقة لهم في الأمر ولا جمل - والتي مفادها كذب هذه المقولة
بل الحقيقة تقول أن مدارسنا تميل أن تكون ملأى."[1]

وربما تلعب النقطة التي توجه فيها اليوم جهود الإدارات المحلية
في بعض المناطق أين لا يبدو على المسؤولين أي استعداد لبذل المساعي
المالية لإنشاء مدارس لصالح الأهالي.

في تقريره حول تعليم الأهالي، كتب السيد رئيس أكاديمية
الجزائر "لا يبدو اهتمام بعض السلطات البلدية بتقديم مخططات
تنفيذية مرتبطة بالتعليم، إن التعاون بين السلطات على مستوى

---

1. L'œuvre française en Algérie

الحكومة وعلى مستوى البلديات هو الميدان الوحيد الذي تبدو فيه نجاعة المخطط التعليمي أو فشله.

عند تقول بأ ترى عن بلدية سكيكدة Philippeville، إحدى أول وأهم المدن التي دخلتها فرنسا بعد غزو الجزائر، والتي عجزت عن بناء أية مدرسة للأهالي منذ فتحها حتى عامنا هذا 1913، بالحجة الواهية التي هي قلة عدد الأهالي فيها [1]، ليست هذه هي التعليلات التي تستطيع تبرير النوايا السيئة المبيتة لدى المسؤولين. إن نموذج سكيكدة صارخ فاضح إلا أن الحقيقة المرة هي أنها ليست النموذج الوحيد فبعض البلديات تعتقد جازمة في النقص الأكيد لجودة ونجاعة العمال الأهالي في حين يحكم البعض على الأهالي بأن فترة تكوينهم لم تأت بعد، أما الفئة الثالثة فلا ترى في الأهالي سوى أعداء لها.

فهم السعي إذن من أجل تحقيق شيء يعتقده البعض لم يحن وقته بعد ويعتقده آخرون دون أهمية، وتراه فئة ثالثة أمرا خطيرا.

وما أقوله لا يعني وجود بلديات عقليتها جمهورية حقا، وهي بذلك لا تدخر جهدا كي تحقق أفضل النتائج في الميدان الذي نحن بصدده ومثال ذلك قسنطينة

1- عددهم يقارب 6000 ساكن

لهذا فإن القرار المتخذ من قبل رئيس الأكاديمية بالاشتراك مع الحاكم والذي مفاده نزع صلاحيات بناء المدارس من أيدي البلديات، قرار حكيم لا ريب فيه. ولهذا فإننا لن نضم صوتنا إلى صوت المتهمين الطاعنين في نوايا الحاكم مهما كان نوعها خاصة متى ما أحطنا بجوانب عمل الحاكم المتشعبة، والتي قد تسهم في ظلها حتى بعض حالات الفشل.

ها نحن أولاء نبلغ النقطة الثالثة التي ذكرناها أعلاه.

لا نعدد منذ 1877 حتى 1911 إلا 450 مثقفا من أصل خمسة ملايين أهليا وهو العدد الصغير الذي يضم المتعلمين المسلمين أيضا، أي أنه يضم أناسا وعيهم لا يتجاوز وعي أحد المستمعين إلى توما الإكويني [1] اعتراف عسير، لا يشرف لا الحاكم ولا المحكوم.

لا نستطيع أن نجلب الخير للناس ضد إرادتهم، هذا ما ستقولونه، نعم، ولكن مهما كانت البرودة التي يتعامل بها الأهالي مع المدرسة والتعليم وهو الأمر الذي يبدو أساسه، خاصة فيما يتعلق بالبرابرة – فإننا نعتقد أن عمل الدولة المعلمة كان يمكنه أن يكلل بنجاح أكبر مما رأيناه.

1- J. ALAUDE la question indigène dans l'Afrique du Nord - son équivoque - une maladie de la pensée politique française

والواقع أن الفشل يعود - فيما وراء النوايا السيئة للمسؤولين الفرنسيين، وعدم اهتمام الأهالي وتقاعسهم - إلى وجود سياستين متناقضتين متجاورتين.

الجميع يعرف بأن الأموال التي تحتاجها الخزينة الجزائرية ليست كثيرة وبالموازاة نجد المفكر الجمهوري مؤمنا بضرورة تعميم التعليم من أجل تحقيق الهدف الحضاري للحملة الأوروبية. إلا أن الحديث عن هذا الأمر لا يصل إلى درجة دفع المسؤولين، حكاما ومنتخبين إلى بذل الأموال اللازمة لتحقيق هذا الهدف وهو الأمر الذي تزيده حدة كون فئة لا بأس بها مؤمنة بأن التعليم والتكوين ينبغي أن يمر بمراحل عديدة تبدأ بتحديد دائرة التعليم في طبقة محدودة لتشكيل فئة مثقفة عالية التكوين وحيدة التفكير في حين الفئة المقابلة ترى الخير كل الخير في رؤية أعداد كبيرة جدا من المتمدرسين تجتاز أسوار المدرسة الفرنسية كل عام، الأمر الذي من شأنه التأثير في عقلانيات وآراء وتوجهات الأهالي في الصميم هل هي سياسة رشيدة أم أنه تسرع يطبعه الحماس؟ الأكيد أن هنالك تفضيلا لا ريب فيه للكم على النوع

هذان هما الاتجاهان اللذان ظلت الإدارة الجزائرية تتراوح بينهما بخطى متعثرة طيلة سنوات وسنوات، عاجزة عن الفصل النهائي في اختياراتها

و نحن نميل بدورنا صوب الرأي الثاني لإيماننا العميق بأن عملية حشو أدمغة صبيان الأهالي بمعلومات قاعدية يلقنهم إياها متمرنون من فئة 600 فرنك سنويا ممن لا مؤهل لهم سوى عدم الرسوب النهائي في شهادة التعليم الابتدائي (في مدارس الأهالي طبعا)، عملية تبقى دون دخول الحقائق العلمية إلى العقل الأهلي وكل خطاب يقول غير هذا لا يعد ويكون ترهات مريدات لا يخدع إلا العقل الحصيف المنطقي هل يعني هذا أن "المدارس" لم تقم بأي دور على مستوى التعليم الابتدائي للمسلمين؟ لا إلا أن رغبتنا في الإنصات تجعلنا نقف متخوفين عند بعض النقاط أو لحق واحد فلماذا إذن نجد برنامجين للتعليم، واحد للأوروبيين والآخر للأهالي؟ لماذا هذه البرامج الخاصة بالأهالي، والتي هي قريبة من نمط عيشهم، من زريبتهم المحتومة والتي تعلمهم تصويب النظر صوب الحياة لا صوب العلم بحد ذاته.

هل معنى هذا أن العقل المسلم أدنى من غيره؟ ما الفرق بين الفتى "ألونسو تريمالو" وتربه "علي بن أحمد" إذ كانا على الدرجة نفسها من التركيز وهما يتابعان دروس المعلم نفسه؟ هل "الشاشية" رمز للتخلف والدونية؟ لقد برهن نفر غير قليل من زملائنا القدامى على تهافت هذا الاعتقاد بل إنه تناهى إلى علمنا أن آخر الإحصائيات تقول بأن أفضل معدلات الرياضيات والفرنسية كانت من نصيب

الأهالي. الحقيقة هي أن عقل الأهالي لا يقل عن أي عقل آخر في
التفكير في التمثل إن ما أعطى معلما جيدا، لهذا نزعم أنه حان
أوان تصحيح أخطاء هذا الوضع، ولتوقف إنشاء
مدارس الأكواخ، أو ما يسمى رسميا "المدارس الملحقة"، إنها لا
تقابل إلا بالاستهزاء والتحقير، ثم إن سمعتها حقيرة جدا. إلا إذا
كانت لها النتائج الملموسة ستترك المكان للغة الإحصائيات
المؤلمة. مؤسسات النمط القديم أكثر احتراما وجديه، والإدارة
العامة ستجني خيرات جمة لو أنها عكفت على نشرها والإكثار
منها. إن حاجيات الأهالي هي التي تملي ذلك. أما الذين يقولون إنها
مدارس خالية من الأهمية فنقول لهم إن رأي الأهالي يصد مزاعمهم،
ثم إن هذه الثقة التي يضعها هؤلاء في هذه الأخيرة تجعلها ناجعة بل
إنهم مصرون على نمطها التعليمي ولمن يقول إن نتائجها بطيئة جدا،
سنقول إن الأهالي قد صبروا طيلة قرون في ظل حكم فوضوي
اعتباطي ويمكنهم اليوم، وقد حصلوا الأمن ويسر الحال أن ينتظروا
قرنا كاملا بل قرونا إن تطلب الأمر، حتى تؤتي هذه المؤسسات
أكلها

بالنظر إلى كل هذا سيكون الإجحاف أن نقول . إن ما أنجز
من أعمال التربية والتكوين لا يمثل شيئا بالنسبة لواقع الأهالي،
وحتى إذا كانت ضراوة الحوار قد دفعت بعض الأصوات التي

يحركها الحماس والتحيز أكثر مما يحركها التأمل والملاحظة
الجيدة، إلى أن تنفي كل فائدة لبرامج التعليم في الجزائر، إذا
كانت هذه حال البعض فلن نستطيع بأي حال من الأحوال أن نعترف
بالنتائج المحققة التي يشير إليها الواقع.

المشكلة هي أن بلد المتناقضات هذا، لا يسمح بظهور حلول
اعتباطية، بل يجب عليها بالعكس أن تكون نتيجة تجربة طويلة
ومعرفة عملية بالأشياء هنا. والمشكلة هي أن المدة جاحدة دائما،
والنجاح ليس حاضرا باستمرار. صحيح أن التعلم العالي للأهالي قد
غدا الشغل الشاغل للسلطات العمومية صحيح أن "المدارس" إذا ما
نظرنا صوبها من بعيد تبدو مهيبة، جميلة الأبنية، رحبة الأفنية عالية
الأبواب، جليلة السقوف إلا أنها في أعمق أعماقها لا تختلف عن
أديرة العصر الوسيط. إنها لكثيرة جدا الإصلاحات التي يجب أن
تلحق بها كي تصير مختلفة عن " الزوايا " الحالية التي يبدو أن يد
المستعمر لم ولن تنالها بتجديد. إلا أنه لا يجب أن ننكر أن النتائج
المحصلة أفضل بكثير مما كانت عليه منذ عشرين سنة فقط.
فرجال القانون المسلمون المتخرجون من هذه المؤسسات قد استحدثوا
كثيرا من طرائق العمل المعاصر التي لم يعرفها القضاة القدماء. إن
نزاهتهم لا شك فيها وعمله يتضح رغبة في الارتفاع بالمستوى الخلقي

الحيطة بهم وفي العمل على تطهير محيطهم من كل ما كان يشوبه

قديما

المدارس الابتدائية، وهي نموذج جيد للجدية في العمل تعطي
نتائج ممتازة من بعد مردودا امتيازا لو أن الإدارة كانت أكثر صرامة
في اتخاذ القرارات الحصيفة وفي العمل بالمبدأ الجيد المتوارث قليل
من العمل وكثير من النجاعة

بالنسبة لنا، نحن، المعجبين بالمؤسسات الفرنسية، حتى وإن
حكم علينا بأننا متفائلون حمقى، لا يمكننا فصل شهادتنا
المتواضعة عن هذه الكلمات التي قالها أحد الأجداد "إن تعليم المسلمين
وإن لم يكن له من المفعول سوى ترك صدى على هضاب العرب
للكلمة الطيبة وأريجا لبعض الفضائل الفرنسية يحمل ذكرى قلب
أبوي حنون تعرش في قلوب الأجيال الصاعدة" ذكرى كيان متعال
عن السفاسف وهذا الأمر يجعل كل حرج يزول وكل عسر ييسر

الفصل الرابع

"البلديات المختلطة"

إن هذا البرنامج السياسي والاقتصادي الواسع الذي يضم قطاعات الأمن والتعليم والتعمير سيقضي إلى قليل من الأشياء إذا لم يجد تطبيقاته في دستور نظام خاص، هذا النظام هو نظام البلديات المختلطة، إذا انطلقنا من هذه الإدارة المحلية سيثبت المثال الأعلى المرنسي الذي يحمل السلم والازدهار والتكوين لجميع الناس وجوده بكل قوة ونجاعة وتفوق داخل المجتمع المسلم

عرف سكان البلديات المنتقدون، المشنع بهم من طرف البعض والمعترف بهم المتساند معهم من طرف البعض الآخر مراحل هجوم وتجميد بالتناوب كان خلالها رجال السياسة والخطباء والإشهاريون من كل نوع، ومن كل جهة ومن كل تنظيم يقدمون المدح والإطراء لهؤلاء أو الشتائم واللعن الأولئك.

يبدو أن الوقت قد حان بالنسبة لنا كي نقول الحقيقة عن هذا النظام، نحن اللذين عشنا تحت سياط الإداري "والقائد" حينا وتحت ولا يتهم الرحيمة الرؤوف حينا آخر، وحتى إن لم نكن سنفصل فصلا نهائيا في أمر هذه القضية فإننا سنأتي هنا بشهادة

معيشته وصريحه لأهلي شاب مانع بإعجاب الصراع الجزائري ما دام محروم وبعيد عن المنصب شاب لا أمل له سوى رؤية الانسجام على لأرض الشمال هريقيه للأفكار والآمال والمشاعر - وفي وقت سياسي - الدماء التي عمل على زرع بذورها أناس مثل آل بوجوا « Bugeau » وآل تيرمان « Tirman » وآل جونار « Jonnart » وآل لوتو « Lutaud »

ولكن من هم رجال هذه الإدارة يا ترى؟ إنهم عديدون في الحقيقة، ونحن لا نذكر منهم سوى اثنين لأنهما بشهادة كل أسس منهج السياسة الفرنسية وهما: الحاكم والقايد بهذا الترتيب مبتدئين من الأصغر إلى الأكبر أي من رئيس القبيلة إلى رئيس البلدية

يعينه ويعزله بحاكم العام، هذه هي حال المأمور الأهلي الذي زانته الإدارة بلقب برنوس وقماش قرمزي، كرمز لتمييزه وكإشارة من سلطته. بيد أن هذه الصورة كانت أكثر صحة وأكثر قوة منذ خمسين سنة إذ كان هذا المأمور أكثر أهمية وأوسع مالا بسبب طبيعة الأجور، وإن كانت الحقيقة أنه كان أقل أهمية مما هو عليه اليوم. إذ لم يكن مطلوبا منه آنذاك ما هو مطالب به على أيامنا

مأمور الأمس، محاطا بكل تلك الأبهة، ومتأثرا وسط تلك الهيبة وذلك الجلال، لم يكن مطلوبا منه شيء سوى الاعتراف بالعلم الفرنسي، والمحافظة على "سلم سلبي" بين القبائل، ولا شيء يهم إذا كان جزء من الضرائب بأخذ طريقه نهبه كل سنة صوب الخزائن الوطنية لتسديد شيء من النفقات المعمرة التي يضطلع بها الحكم المركزي، أما باقي المال فهو في خدمة ثروات معدة كل حاكم محلي متربع على عرشه تحت خيمة من، أما حاليا، فالقايد أو الشيخ أو النائب الأهلي لكي نسميه بتسميته الإدارية الرسمية منوطة به في دائرته التي هي أضيق بكثير من دائرة صنوه القديم، مهام أكثر، وأدق مما كان للآخر قديما به مسؤول بالدرجة الأولى عن أمن المعمرين [1]، الذين هم أناس يصعب جدا إرضائهم. وكذلك هو الأمر مع الأهالي. إنه المسؤول المادي والمعنوي على تحصيل وتسيير الضرائب التي لا يستفيد شخصيا إلا من جزء صغير جدا منها وهو من يفصل دائما في المنازعات الناشئة بين أفراد دائرته، عاملا كل ما بوسعه لتجنب وصول القضايا إلى المحكمة، لأن ذلك مكلف جدا في ظل شح الخزائن المحلية بكثير من المبادرة عليه إعانة البعض وتشجيعهم دون المساس بمصالح البعض الآخر، هذا هو دور هذا المسؤول الأهلي كما

[1] قدم أحدهم شكوى مفادها أن نحل الضيعة المجاورة كان يأتي لأكل عنبه

لنقوم به على أكمل وجه.

[illegible] وهو [illegible] هذه هي العوالم التي يدور بعض [illegible] من [illegible] الحكم الفرنسي [illegible] فيه [illegible] هؤلاء المأمورين الذين يطلق عليهم [illegible] كما يجب؟ وقعت في [illegible] هذه مهام [illegible]

[illegible]

بالتأكيد سيطلب لأحرص من [illegible] هؤلاء الأفراد، [illegible] لصوت أيضا أن نقول إنهم مأمورون نموذجيون [illegible] في معارفهم المحدودة تأتي منقصة حتى في تلك المنوطة بعرف [illegible] عرف [illegible] يبدو غريبا وعجيب الأمر [illegible] اعتبار هؤلاء الأعوان "القياد" أميون، إلا أنه [illegible] ومحسوس والمتزايد بإصرار من الشرق إلى الغرب أنهم لا يجهلون فقط القانون الإداري الفرنسي بل إنهم يجهلون حتى لغتهم ثم إن أعداد كبيرة منهم لازالوا يضعون علامة صغيرة (+) مكان الامضاء رغم كون النياشين تملأ صدورهم [illegible] فوق شريط [illegible] جميل ليس هذا انتقادا للإدارة التي توزعها، ولا لوما لها، بل إننا بعيدون عن هذا الأمر تماما لعلمنا اليقيني بأن هذه الأمور قد حدثت من أجل ضمان وفاء الأتباع واستتباب أمور الرعية

للأسف الشديد هؤلاء المأمورون الذين نريهم النياشين ليسوا هم أعسر من يسلط الضغط على الأتباع، إذ توجد جيوش من الشيوخ الذين يتسربلون بالبرانيس يتسمون بسمعة "[illegible]" وسمعة "[illegible]" وسمعة [illegible] المشكلة أن كثير من الأعوان لأهالي يملكون تصورا غريبا لدورهم كإداريين، وإذ كانت ثلة منهم لا تقوم بالتجاوزات المشينة فإن أغلبهم يقبل بطيب خاطر أن يغمض عينيه حينما تقدم له هدايا و عطيات من قبل أصحاب المصالح وحتى أصحاب الشكاوى ممن يأتون بقوارير العسل أو الزبدة وعبرها متسللين بخطاهم لأنه لوضع هذه الهدايا في المخزن والمشكلة أن الحكم يتم بأي شكل كان، بمعزل عن السير التقليدي للمخزن الذي يتقبل العطيات وبمعزل عن الرعية التي تقدم الهدايا. فهكذا هي الأمور منذ كانت هذه البلاد

لذلك فإن الخروف الذي يهدى إلى القايد ليلة العيد دون مناسبة و "الدورو" الذي يوضع في جيب ابنه أو أي جيب حواليه بمعزل عن عيون الناظرين و لذي يسمى " البركة" كل هذا لا يصدم أحدا ولا يثير استغرابا- إنه النظام العادي للأشياء منذ 1870 وقبلها أيضا للأسف الشديد.

لسبب قد لا نطيل الوقوف باختصارنا عند هذه الحقائق التي أصبحت عادة مألوفة لدى الجميع. ما نود الإشارة إليه هو أن هناك من بسبب هذه الأشياء من حقوق رعاياه سلبا للاعتداء السريع. هؤلاء لابد من اتخاذ تدابير رادعة في حقهم من قبل الإدارة وكذلك في حق معينيهم الذين يعتدون إلى جانبهم من خلال عمليات أصبحت معروفة مثل "الدمارة"[1] فيما يتعلق بالأراضي الجماعية و"المشارة"[2] فيما يتعلق باستفادة الأغنام المسروقة و"الكبار"[3] بالنسبة للأغنام المخصصة للأعمال الجماعية ... وكل هذه مداخيل غير قانونية تتفق على الخوض فيها الجميع عاليهم وسافلهم، قاصيهم ودانيهم.

توجد فئة أخرى أقل جشعا. إنهم لا يرفضون هدايا الرعايا التي تبدو لأول وهلة عربون صداقة قبل أن تتحول فيما بعد على رشوة. إنهم لا يفعلون شيئا لإيقاف هذا الأمر وإن كانوا لا يستطيعون ضغطا على إخوانهم من أجل حدوثه. أخيرا توجد فئة ثالثة

[1] [illegible] بسبب قطعة أرض هي للعرش بدون مقابل

[2] [illegible]

[3] [illegible]

من الميدان يعوضون تكاليف أعمالهم وخدماتهم بطلب خدمات بالمقابل متأكدين من قضاء رعاياهم لها.

شيء غريب آخر هو أننا نجد أبناء الأكابر مزودين بالنزاهة المهنية وبأخلاقيات عالية في حين الفلاح لدي هو عموما مطالب بأن يكون رئيسا في دواره والذين نجده في كل مكان فهو حينا موظف جشع وحينا قايد مرتش وحينا آخر مسؤول قوي. الأمر الذي يقودنا إلى الاستنتاج بأن درجة النزاهة لا علاقة لها بدرجة الغنى وسعة الثروة وإنما تقف متهمين أمام الأمور الأهلي الذي تحمله الحاجة يلجأ إلى أحد رعاياه من أجل خدمة ما ذلك أن الأخلاق الإسلامية حاربت منذ القدم الصلات التراتبية بين الحكام والمحكومين. فنحن نجد على مر التاريخ ملوك المسلمين يصاحبون ويداعبون رعاياهم ممن يصادفونهم في الطريق مهما كانت سلطتهم وفقرهم. بل إن رسول الإسلام (ص) نفسه -ممهدا للقديس لويس المسيحي بشكل ما- لا يتردد في ساعات الحر في أن يجلس تحت شجرته المفضلة[1] في المدينة مستمعا إلى حميميات [illegible] من أتباعه وشكاوي البعض الآخر من رعيته

[1] [illegible] هذه الشجرة أصبحت بعد [illegible] وأن كثيرا من [illegible] بعد وفاة الرسول (ص) [illegible] الخطاب بقطع الشجرة وحرقها لكي لا تكون [illegible] والتقديس إلا لله

ويلاحظ في مرحلة أقرب منا لأمراء المتحببين من قبل السعداء المركبة [illegible] حسنات بعد تعيينهم لاستقبال هدايا الأتباع والرعايا و[illegible] لذلك هدية سيكون من سوء التدبير [illegible] من القياد أن يتحلوا بالنزاهة المهنية والوعي [illegible] من الموظف لمرسي والذي لا يصبح حاضرا مستمرا حتى هذا الأخير حينما يطيل التعامل مع الأهالي الذين يتعاملون بهذه الطرق لتقريب

بـ خلافات لتجربة قد أقرت ممارسات قديمة قوية لا تستطيع الإدارة الجديدة زحزحتها لذلك يفضل أن يعمل مأمورون من الأهالي على الحد من جشعهم وتقليص ما يأخذونه من العطايا وحب التهديد والممارسات الحقيرة التي تهدف إلى تأليب فئات ضد أخرى من أجل تحكم في الرقاب أهل وأنجع

ممارسة "الهيبة" التي هي ليست ممارسة يختص بها القايد فحسب، بل تعدت منها الفقيه الإمام والمقدم، ويرونها دليلا على سعة سلطتهم ودوام وفاء أتباعهم ... بل إنه من المؤسف أن نجد هذه الممارسة تمس بصفة "المدرس" الذي يعدها تعبيرا عن عرفان طلبته. نفس كتيب سطر ذلك المدير الذي وجد نفسه في إحدى المدارس الإسلامية مجبرا على التدخل شخصيا وبنشاط جم لأجل إيقاف

سيل البرتقال والبيض وقوارير الزبدة التي تتتابع من أجل تغذية "الشيخ المسلم"؟!

إن سلوك قواد الأهالي بعيد عن الانتقاد. لا شك في ذلك وحتى أشد هؤلاء حماسا والذين هم مستعدون لحمل السلاح لأجل الذود عن أرض الجزائر ليسوا بمعزل عن مثل هذه الأوصاف. إنهم شبيهون بأسلافهم الذين عايشوا مرحلة ما قبل 1815

إنهم دون فهمهم الحقيقة التالية. لا يصير المرء محبا لبلده إلا متى تحول إلى رجل جدير بالانتماء إلى هذا البلد

فما معنى التعبير عن الولاء لحاكم هذا البلد إذا كانت كل سلوكاتك تمس به وتلحق وصمة العار باسمه؟

إن جعل القائد الأهلي يبلغ درجة الشعور بمتطلبات منصبه ودرجة القيام بواجباته بضمير يقظ ونعيد التذكير بأن القياد لا يفهمون جيدا طبيعة منصبهم ولا يفهمونها تماما في بعض الأحيان .. تلك هي المهمة التي من شأنها جلب السعادة لمواطني الأرياف. ونعتقد أن توزيع دليل تكتب فيه كل هذه الأمور هو شيء شديد الإفادة.

هنالك من هؤلاء من يرى الإدارة عاجزة دونه وغير قادرة على التخلي عنه والتضحية بخدماته وبمركزه اللامع بمجرد أن أحد أسلافه هو عين من أعيان المنطقة. وتفكير (كان أبي وكان

حتى يحرق ومن شأنه أن يسقط من برنامج التحضير والتمدن
دي يحرر بصدد وصفه نعلم جيدا أن لهؤلاء الأشخاص المذكورين
علاه حيدهم ورديهم دورا لا يبحس لذلك فإنه على الإدارة ـ
مطور مع من ذكرناه أن تنظر في أمرهم كمستخدمين لديها
فلا نعاملهم سنويا كما نرى وأن تعيد النظر في نظام رواتبهم
وصفته بمقامهم وبالنظر صوبهم ونقف قليلا عند نظام الرواتب هذا
الذي لا يخلو من ثغرات فمن الغريب أن نحدثهم منذ زمن بعيد وإلى
اليوم يتقاضون عشر مبلغ دخل مقاطعتهم من الضرائب وهل
يمكن تصديق الحقيقة التي مفادها أنه على اتساع رقعة فرنسا لا
يوجد إلا قائد فلي واحد ووحيد يتقاضى أكثر 4000 فرنكا
سنويا هذه هي ذي بعض الإحصاءات فيما يتعلق بدخل القياد:

شيخ يتقاضى من 0 إلى 100 فرنك سنويا

9 شيخ يتقاضى من 100 إلى 200 فرنك سنويا

22 شيخ يتقاضى من 300 إلى 400 فرنك سنويا

39 شيخ يتقاضى من 400 إلى 500 فرنك سنويا

51 شيخ يتقاضى من 500 إلى 600 فرنك سنويا

59 شيخ يتقاضى من 600 إلى 700 فرنك سنويا

50 شيخ يتقاضى من 700 إلى 800 فرنك سنويا.

67 شيخ يتقاضى من 800 إلى 900 فرنك سنويا

72 شيخ يتقاضى من 900 إلى 1000 فرنك سنويا

44 شيخ يتقاضى من 1000 إلى 1100 فرنك سنويا

58 شيخ يتقاضى من 1100 إلى 1200 فرنك سنويا

55 شيخ يتقاضى من 1200 إلى 1300 فرنك سنويا

45 شيخ يتقاضى من 1300 إلى 1400 فرنك سنويا

41 شيخ يتقاضى من 1400 إلى 1500 فرنك سنويا

25 شيخ يتقاضى من 1500 إلى 1600 فرنك سنويا

34 شيخ يتقاضى من 1600 إلى 1700 فرنك سنويا

31 شيخ يتقاضى من 1700 إلى 1800 فرنك سنويا.

20 شيخ يتقاضى من 1800 إلى 1900 فرنك سنويا.

16 شيخ يتقاضى من 1900 إلى 2000 فرنك سنويا

12 شيخ يتقاضى من 2000 إلى 2000 فرنك سنويا

10 شيخ يتقاضى من 2100 إلى 2100 فرنك سنويا

... إلى 2200 فرنك سنويا.

شيخ يتقاضى من 2300 إلى 2300 فرنك سنويا

شيخ يتقاضى من 2400 إلى 2400 فرنك سنويا

شيخ يتقاضى من 2500 إلى 2500 فرنك سنويا

شيخ يتقاضى من 2600 إلى 2600 فرنك سنويا

5 شيخ يتقاضى من 2700 إلى 2700 فرنك سنويا

شيخ يتقاضى من 2800 إلى 2800 فرنك سنويا

1 شيخ يتقاضى من 2900 إلى 2900 فرنك سنويا

1 شيخ يتقاضى من 3000 إلى 3000 فرنك سنويا

4 شيخ يتقاضى من 3100 إلى 3200 فرنك سنويا

2 شيخ يتقاضى من 3300 إلى 3400 فرنك سنويا

1 شيخ يتقاضى من 3400 إلى 3500 فرنك سنويا.

من الواضح أنها رواتب غير كافية تماما وأنها عديمة الصلة بالخدمات المطلوبة منهم، وهو الأمر الذي يفتح الباب أمام القيل والقال من قبل قائد يتكون حريمه من 15 عضوا ويجد نفسه مجبرا بين الحين والآخر على استقبال ضيوف نوعين عجز عن خدمتهم

مرتبه فقط بل أنها تؤكد تكون حقيقة الدعوى القائلة أن هذا التعامل هو تشجيع على السرقة وهذا الكلام لدي لي بشكك فيه أحد شهادة جيدة على ما ذهب إليه "إن نقص النزاهة لدى القياد هي شيء كالمذهب لدى جمهور الأوروبيين وهي أمر مقبول ولو بشيء من الحدة في الأوساط الإدارية.

إن وعي الإدارة العادي بمثل هذه الأسئلة هو وعي ربات البيوت التجاوزات مقبولة ما لم تتجاوز الحد المتعود عليه وما دامت الامور تسير على ما يرام"[1] ولكن أين يتوقف هذا الحد الجماعي هل ان المسؤولين لا يمدون نظرهم إلى هذا الأمر بحسب مستويات نظرهم أن الامر بالأهمية التي تستدعي الإجابة على هذا التساؤل ومراعاة هذه القضية.

ها نحن الآن ونحن نختم السنة الأربعين لا زلنا نتحدث عن تراتيبه الوظيفية وعن تقديم وصفة علاج لأعوان الأهالي الأمية الأولى في هذا الإطار والتي رفعت إلى المجلس الأعلى للحكم يعود تاريخها إلى 1878 وتم تجديد رفعها مرار أعوام 1892، 1894، 1896، 1903، 1911، 1912 من قبل عدة مجالس سحابية ولا زال هذا الأمر في طور المشروع عم 1913

R Aynard ancien directeur des affaires indigènes au gouvernement général de l'Algérie œuvre française en Algérie P 233

حمر ورغم معارضة مجموعة من الاقطاعيين تشكلت نحو

ترتيبه هذه بعيدانه عن كتب وزعت في العمل، انها تفترض

مجموعه من لإصلاحات التي تر ها شخصا حيدة على العموم

وبت لمو من هو متخوف من زوال نظام القياد من الثمرت

الاجتماعية المرجوة مال مثل الفرنسية الجمهورية ومصالح رعاياها

لا تنحصر في محافظة على هذا النظام الذي أكل عليه الدهر

وشرب

بالنسبة لمفكر همه الحق والعدل، تبدوا الظروف واقعة ضد

نقائد لاهني وهي ظروف مردها عدم انسجام الإدارة في تعاملها

معه فهي تكلفه بمهمه عسيرة لا يتقاضى لقاءها إلا أجرا زهيدا،

ثم عن وظيفة تجعله مجبرا على تحمل مصاريف مرتفعة من أجل

المحافظة على الموقع الاجتماعي المتماشي مع منصبه الذي يملك

حسب ادريا وجانب آخر شكلي استعراضيا فمجرد مجيء مسؤول

ووزير إلى إحدى المقاطعات، يجد القايد نفسه مجبرا على تقديم

وجب بضيافه بكل ما يستتبعه من التكاليف، بعد أن يقود الوفد

الشرفي.

الحاكم يتنقل في زيارة تفقدية من يا ترى يستقبله؟ إنه القايد

بلا شك أن أعوان أو الحاكم فهل من واحدهما فتح تحقيق قانوني؟

يهما بمصيبين الليلة لدى اتباعهم من مستقبل وموزع لإعانات

اللذين يقومان بمهام تستغرق وقتا طويلا يعملان الأمر نفسه إذ لا

يتوجهان على أعوان الدرك لطلب المبيت من يدفع إذن ثمن كل

هذا؟ ليست خزينة الدولة بلا شك.

ما يحدث أنه يتم اختيار القايد من أفراد العائلات لغيبة حتى

لا يتحمل محمد بن مبارك تبعات زيارته. لقد وضحت التجارب أن

الآمال التي أسست على هذا النوع من الاختيار قد باءت بالفشل

ولكن إذا ما افترضنا أن النظام الذي نحن بصدد الحديث عنه غير

قابل للطعن كيف إذن تم - في وقت مضى - تعيين الشاويش

وطباخ رجال السياسة أصحاب النفوذ، وفرسان البلديات المختلطة

الذين يتمثل استحقاقهم الوحيد في البقاء لسنوات طويلة في الخدمة

الخاصة للسيد الحاكم أو لزوجته المحترمة.

هناك في هذا المقام ما يدعوا إلى احتقار هذه الوظيفة والتقليل

من مصداقيتها بفعل هذا الشطط. هنالك مجموعة من التعيينات

عملت على إفساد واجهة هذه الوضعية التي كانت فيما مضى

تتمتع برونق كبير. الوضع اليوم كالح للأسف الشديد ولحق أن

الإدارة على أيامنا على علم سيء ومحدود بمأموريها وعمالها من إنها

أكثر اهتماما بعمال الداخل والخدم في البيت منها بمستخدميها الإداريين

إنها إدارة يتجاذبها في مسألة التعيينات تياران متقابلان لا بد من حسم في أمرهما فصلا نهائيا: إما اختيار هؤلاء القواد من بين أبناء عائلات الأهالي المرموقة من أجل استثمار المكانة الراقية والسلطة المعنوية التي لهؤلاء الأعيان مثلما كانت عليه الحال أيام الإدارات العربية أو ديمقراطيه المنظومة وعدم فتح باب الترشح لهذا النوع من المناصب الحساسة إلا لمن هو ممتاز على الآخرين بكفاءته واستحقاقه الشرعي

وإذا لمصر بأمه في الحالتين لا بد من دفع استحقاقات المنصب وإجبار أصحاب هذه المناصب على الالتزام بمجموعة من الشروط وأداء مجموعة من المهام المحددة سلفا

لن نبلغ درجة إرشاد الإدارة الحصيفة إلى أدق تفاصيل هذه العمليات التي نحن بصددها فنحن واثقون أن النخبة المذكورة أعلاه ستحرر مذكرة بالإصلاحات المقترحة والتي ستشمل كل التفاصيل التي نعلمها وأكثر منها

فلنحاول الآن التوغل أكثر في قلب البلديات المختلطة. ها هي ذي بنايات جميلة تتوسط القرية مختلفة عن باقي البيوت المتواضعة

والأكواخ الحقيرة من حيث لونها الأبيض، وطابقها الراقية، إنها تجلب الاحترام بهيبتها الشديدة وسط الريف الجزائري. وفوق أبوابها الخشبية الجميلة المنقوشة يرفرف العلم الفرنسي يحرسه حارسان رائعان بلباسهما الرسمي، البرنوس الأزرق المحبط بطائر صفراء والمرمية قلنسوته إلى الخلف.

إنها "البرج" الاداري هنا يمكث "الحاكم"، أما "الدبيرة"، برغم مظهر الحراس الشرسين الذي يحيط بهم، فلا يمانعون ضد دخول أي كان إلى البرج وقد عبرنا عديد المرات ممرات وأروقة الأبراج الادارية التي يملؤها رجال، نساء وأطفال من كل عمر، يقبعون هنالك في الانتظار المعهود لديهم كي ينادى على سمعهم لعرض شكواهم وقضاء حاجاتهم حتى الدبة التي تعبر لمكان الصامت يمكننا سماعها.

ما الانطباع المنبعث من مكان مماثل؟ لن نتوسع كثيرا في وصف تفاصيل وجوانب هذه السلطة التأديبية المنوطة بالحكام "الاداريين تحت العنوان المسمى "الأهلوية" كل ما سنقوله قد قيل من قبل ما أكثر ما ردد المدافعون عن الشأن الجزائري ملاحظاتهم حول قسوة العمل، وسوء المعاملة التي يتعرض لها هؤلاء المساكين، وما أكثر ما سحبت الريح العابرة أصوات الذين

لا دري الحاكم ليس فقط عرب المساكين.

يعونون ... دور

ومعاقبه ...

سيعمل فيما يلي على رسم صورة بعيدة عن كل تحيز

يحكم لمعطي الذي يفكر لأي كان أن يلاقيه في الجزائر

إدو التوسع في بعد ... ووهنع، يستوقفنا نوعان من "الحاكم" في

الجزائر

ذلك مدي ينتقل بنفسه الى لدو ر يخالط الناس، يستمع الى
شكواهم امام الملأ يتواصل مع الأهالي، يسأل بعضهم سر،
يحاور سكن الطرق يتوغل في أروحهم الموصدة دون الاجنبي، كل
ذلك من اجل ان يتعرف اكثر على عقلية من يحكمونهم. هذا
الحاكم حينما يعود الى كرسيه، إلى مكتبه، يدون ملاحظات
شخصيه ويصدر ملاحظات و احكاما حول الإصلاحات الواجب
مبادرتها منتظرا أقرب فرصة لتطبيقها

ان هذه الجولات الميدانية تره لأهمية سوق أسبوعية تكمن
حمهم هذا به بسيجه بحائط، ويبني داخلها حوانيت واكواخ
ضد لامطر هذحة وضد حرارة الصيف، ثم يكتب الى معيبه
كي يبنو الطرق ويحسنو المعابر الاساسية صوب السوق، أرض
من مهي لسديه حبيه وهو دا يمشي فيها مشتلة. ويجعلها تنتج

أخصب المزروعات وأكثرها جلبا للربح ثم يشجع الأهالي والقياد
على الالتفات الى ذلك الامر واستثمار مدورهم.

احيانا أخرى نجده يشق معصره زيت عند سفح هضبه ما،
يكلف بحراستها بعض رجال الأمن إلى جانبهم اهالي يساعدونهم
لقاء اجور، ثم يشتري الغله ويحولها الى إنتاج يشرف على بيعه فيما
بعد في المراد العلى والمداشر المجاورة، جاعلين منهم بدل
ومساهمين في ملء الجزائر بمحليه دون اللجوء الى ضرائب لتصيير
بذلك الحياة اكثر كثافة، وعجلة التعامل المدني أنشط وانجع

لا نستطيع مثل هذا العمل أن يدهش خيال الأهالي، ثم إن
المثال سيُحتذى بسرعة والخير سيعم الجميع ليتحول الفرد الى حلقة
في سلسله اقتصادية متجه وحالبة للربح و لمنعمة العامة، بدلا من
بقائه حاملا بقاسم حيواناته الأعشاب و لنبات

هذا النموذج لا يوقفه ثلج ولا برد ولا مطر ولا ريح ولا تحيبه
الأخبار الاسبوعية التي تاتي دوريا لتروي فصاحته وتكشف
مستوره للمسوولين وأمام الجميع بين يدي رجل مخلص للعمل متفان
في اخلاصه مثل هذا الحكم الجائر بخمسه أيام سجن و15 فرنكا
كضريبة ردعية ضد كل من تحول له نفسه رفض الانقياد
للأوامر. هذا الحكم لا يصير ملجأ وحلا مخلصا. بل انه يصبح

شيئا معيدا، لأنه صبح دليلا على هبة المؤسسة ورحالها لا سمة
دلة على لقهر و لتسلط و لتجبر
صرامة، وحبوية، سواء في العمل أو في العقاب وفي الحزاء
احسس هذا هو النموذج الذي نحن بصدده، والذي عرفناه عن
كثب وعايشناه بقدر يسمح لنا بتقديم الشهادة

اكل الحكم على هذه الشاكلة؟ لا للأسف الشديد.
فكثيرون لا دور لهم سوى الدور الذي تلعبه علبة البريد ويلعبه
أبسط إداري مستخدم في التواصل

بيروقراطيون حد القرف، لا يتركون أبدا أفراحهم العائلية
لصالح حوله تفقديه لأحوال الرعايا التي لا يسيرونها إلا على الورق
وكفى. فهو إذا خرج فلكي يسير في طريق مجهز للزيارة، يغمره ثم
يغرق في المراسيم والشكليات لكي ينصرف واعدا بالنظر عن
كثب في أمور الشكاوى والمراسلات التي لا تنتهي ثم يتوقف الأمر
عند هذا الحد وسط كلمات ترحيب، وكلمات توديع، وكلمات
على شرف هذا وذاك وموسيقى حماسية لتوديع السيارة الرسمية
المنطلقة من البرج، إلى حيثما أتت

إنه حاكم لا يدري شيئا عن حال الفلاح ولا وضعية الكوخ
ساعات عمله يحددها هو على هواه المعنى ببساطة هو أنه إنسان

لديه ساعات عمل، إنه يقبع في بيته طوال النهار دون أي شغل، في
حين يستيقظ أحد أصحاب المصالح على الرابعة صباحا، يسير
لكي يكون على الثامنة في البرج ينتظر سعادته، لكي يجد
نفسه على الرابعة، الخامسة أو السادسة مساء، قبالة شاوش أو
حارس أو جوجه سعيد بدوره، وسط البستة الجميلة المحمة التي
يعتنى بها اعتناء جيدا رغم أنه لا يتقاضى سوى 5 فرنكات.
ولكي يقول له أحد هؤلاء الآخرين -وذلك في أحسن الأحوال
"عودة". تلك العودة الشهيرة ككل موظف جزائري، مسير مجبر
على الاعتماد على الصلة الحساسة بينه وبين مستخدميه إلا أن
الواقع يفرض عليه أيضا أن يحسب ألف حساب لصلات التراتبية
بينه وبين مسؤوليه إن عليه في نهاية الأمور أن يحافظ على التوازن
الحسان جدا بين مصالح الأوربيين ومصالح الأهالي

وفي النهاية، تدفعه هذه الوضعية إلى توكيل معينيه للنظر في
أمور الرعية، ثم تنتهي به الأمور إلى أن يصبح لا يرى شيئا إلا من
خلال عيني معينيه، إلا أن الأجمل هو أن توضع المسؤولية في
موضعها، وهو أن يتمكن صاحبها من فرض حدود لها

إن مستخدمي الإدارة من النواب على العموم -ليسوا طبقة
جادة أحيانا نجدهم أصفر بكثير من مهام في مثل أهمية المهم

الادارية لبلدية مختلطة، و حينا نراهم تعصيهم التجربة . وقد
توحظ مرات عديدة على العنف للبت في الامور

مسؤول كهذا عاجز بالتأكيد بارد وعديم الاحساس انها
الصورة النموذجية للملك المسلم بل إنها رأس حالات لم يعمل بقاء
لمسؤول لسنوات عديدة على رأس البلدية، إلا على المحافظة على
امن صممه حد السافير، نتيجة جميلة ولكنها غير مرضية طبعا

ووضع لاهالي في ظل حكم مسؤول كهذا ليس خطيرا بل
انه لا يوجد حتى مأخذ الحد يحدث انه تدعا لتقرير من احد
العياد يقرر لمسؤول العقاب، فيكتف المعاقب بسرح حشائش
بستانه وانتهى.

إن المشرع يرى في هذا الوضع وسيلة للانتاج والحصول ان
قانون الأهالي، في حال تطبيقه ضمان تأكيد للأمن العمومي. وقد
اعطى هذ التطبيق نتائج جيدة في مساسات عديدة المحبوس وحده
يطمع في إرسال فلاح يرفض الجري صوب غابة تحترق بالماء الى
المحكمة لحاكمه على العصيان، أو يرغب في مقاضاة حماسي
تهمه مرب مريب يأكل عرقه محميا طمعه تحت اللبوس النبيلة
للمعمر او الجودة المهيبة التي تعتلي رأس قائده. هذا أمر يعرفه

الجميع. هذان نموذجان منتشران للحاكم كما يمكن ان نراه في
الأرياف الجزائرية.

يوجد نموذج ثالث، أسوأ للأسف الشديد، واقل عددا،
خاصة منذ بدأ في معاقبته وردعه. إنه نموذج لا يفكر إلا في
الاعتداء

وقع بين ايدينا تقرير منذ سنوات يتحدث عن مسير وعن
خوجته، فينقل أن هذين لا يتلاعبان فقط بالأملاك العمومية، بل
انه قد ثبت انهما نهبا واستوليا على ما يقارب مائة وخمسين قنطارا
من الشعير، وحوالي مائة خروف!!

لا ندري تماما ما هذه الأشياء ولا صلتها بهذا المنصب لقد
اتخذت الادارة العليا في حق هذا المسير ردع لتدبير وافساد،
بطرده رغم كونه رب عائلة وكونه على أبواب التقاعد

لا بد من الحديث عن التجاوزات، والإقرار بوجود النقائص،
الا أن هذا لا يلقي بظلاله على الادارة العليا التي تحتوي على
مسؤولين رائعين نموذجيين محترمين.

لقد كتب بعضهم بأن "الأفعال المشينة للمسيرين، مضافة الى
الحكم القهري المستبد والاعتباطي للجماعة و للشيوخ وقد
ساعدوا على ظهور جو "لا يخدم مصالح الادارة الفرنسية" ودون

التشكيك في نوايا المؤلف[1] لا بد من الفصل في نقطة غامضة بعض الشيء

إن الجو السائد في أوساط الأهالي، موجود منذ زمان على حالته. لا هو أفضل ولا هو أسوأ. إن الفلاح لينظر مشدوها صوب المسيحي "الرومي" الذي يشيد الجسور، ويتناقل الأخبار من قارة إلى قارة عبر أسلاك النحاس، الذي يحرك الجماد، ويحصد بواسطة آلات قوية وسريعة وهو لا يحبه لهذه الأسباب بالذات. إن عجزه إزاء المسيحي يجعله يكتفي بالسلام السائد، يتمتع في هذه الحدود ويتحمل عبء هذا الوضع

إنه يجهل الماضي. فلا حسرة لديه على ماضي الإسلام المجيد الذي لا يعرفه. وهو دون شعور "الوطن"، وطنه كوخه، ودواره، وقبيلته، والموضع الذي عاش فيه أسلافه

الحقد الديني الذي يرعاه للكافر ليس هاما إلى الدرجة التي تتداول. أما الهوة التي بينه وبين جاره الأجنبي فهي هوة الأحكام المسبقة. فما إن يجلس على مقاعد المدرسة الفرنسية حتى نكون قد ربحناه. ويوجد مسلمون آخرون أفظاظا رغم مظهرهم الخارجي الموحي بالعكس

---

[1] Charles Michel conseiller général de Tebessa la question indigène.

ولم لوم القياد والمسيرين فحسب؟ المترجمون، المحضرون القضائيون، القضاة والمحامون، أليس بينهم أناس مريبون تشوبهم أكثر من شائبة؟ إن هذا الأمر منقصة اجتماعية إفريقية لا ريب فيها. لهذا فإن الفرز عملية صعبة والنظر إلى المستقبل الأفضل يطالبنا بغض الطرف على بعض النقائص التي قد نجد لها مبررا في الطبيعة البشرية الضعيفة دائما أمام الطمع، وقبالة بريق الذهب.

وإذا كانت هنالك ظروف ما، ومعطيات أو أفعال معينة تأتي أحيانا لكشف بعض النوايا المريبة، فتصور لنا الرجال المذكورين على غير الصورة التي كنا نراهم عليها، فإن الرجل الحصيف منا عليه معالجة هذه الأشياء بكثير من الذكاء واللطافة ورجاحة العقل والقدرة على الإقناع اللازمة.

لا بد من التعرف على بعض المميزات بكل ما فيه من روح الخداع، ومن العمليات التحتية الخفية، لكي نفهم جيدا المجهود اللازم لمثل هذه الأوضاع وأمثال هذه الأماكن

لذا علينا توجيه ما يجب من المدح لهذه الأعمال. وتشجيعها فعلا وقولا واعترافا بالعرفان لمن هم قائمون على تسيير هذه البلديات المختلطة عسيرة الأمر، باذلين قواهم وأفهامهم

الفصل الخامس

أوراق الشعب الجزائري

عند دراسة الوضع الاجتماعي للأهالي، لا بد من الانطلاق من النقطة التالية:

هنالك مجموعتان كبيرتان يمكن تمييزهما بيسر القبائل، عرق من سكان الجبال الأشداء العاملين في الفلاحة والساكنين لجبال بلاد القبائل دون غيرها والبربر المعربون الذين يأهلون بقي البلاد

وهنالك فئة أخرى لا بد من ذكرها، الكرغلة، المنحدرون من التزوج بين الأتراك والبربر، أو بين الأتراك والعرب، أما العرب بالمعنى الخالص للكلمة فلا وجود لهم.

وكل هذه التشكيلة الشعبية -وبعد وثنية سابقة- تدين بالدين الإسلامي إلا أن عناصر هذه التشكيلة لا تفتأ تحتفظ بعادات، سلوك، وحتى عقائد قديمة مما ترسب من ماضيها العقيدي السابق للإسلام، وسنرى كيف أن كل نقمة وكل جماعة وحالهم في ذلك كحال الفرنسيين في القرون الوسطى -

وكعائله اليوم بعد حسب كل له كثر من مؤكد نقد-
تمسه شيوخ طريقه (مرابطين) وأولياءها الصالحين. وكراماتها
وأساطيرها وحتى لسلاء وعليه هذه الأعوام وحالهم في ذلك
كحال العوام والنساء- منشغلون بالميتافيزيقيات والماورائيات
أكثر من انشغالهم بالدين الصحيح

بعد عشر سنة ديبه تحركهم الأحكام الدينية السابقة
وكلهم مؤمنون شديدو عدا أقلية مؤمنة غير ملتزمة بالشعائر

ولا يعرف حد ما يرد من علاء بعض المثقفين وأبناء الأكابر
للانتماء إلى ماسونية، أو من المنهج الإلحاد. "لأن المفكر المسلم
حر مستقل دائما لانتقاد مبادئ المفكر المسيحي ولكنه لا يسمح
أبدا بالمساس بعقيدته"[1]

هذه الخواطر بحاجة أكيدة إلى تناول أعمق وتحليل أدق.
وسنعمل فيما يأتي على تبيين العوائق التي تعترض المفكر الفرنسي
- بسبب الأحكام الجاهزة المذكورة أعلاه- وتمنعه من التغلغل
في الروح العربية البربرية. إلا أن العاجل هو -بالتأكيد- وصف
نتائج البرنامج الإصلاحي للإدارة الفرنسية الهادف إلى تحسين وضع

1- André Servier , Le Péril de l'avenir, le nationalisme musulman en

رعاياه، وكذلك بسبب الحالة المادية للأهالي، وهو الوعد الذي
قطعناه على أنفسنا في بداية هذا الكتاب

سواء أكانوا قبائل بربريا معربين أم كرغلة، على أن هنالك
تقسيما آخر لا بد من ذكره لأنه يلعب دورا كبيرا وفهم الوضع
العام، إنه تقسيم الشعب الجزائري إلى "فلاحين" و"أعيان"

والفريق الأول هو الأهم لأن ما تم تحقيقه من انجازات يعود
الفضل فيه إليهم، فأغلبهم عمال، وهذا ما يجبرنا على تخصيص
جل كلامنا لهم

لقد منح الفلاح للإنجاز المذكور مادته الأولية الأرض، ثم
منحه ذراعيه القويين، ولولاه، لما كانت سهول عنابة سطيف ولا
المتيجة على ما هي عليه.

لا أحد ينكر ذلك، إلا أنه من الغريب أن نلاحظ أنه في كل
مرة يعلو صوت ينتصر للفلاح، تبرز إلى الساحة آراء متعارضة
متناقضة، ولا أتسرع فأقول إنها آراء على خطأ. بعضهم يقول إن
الفلاح مقموع مظلوم وإنه تعيس حقا، والبعض الآخر يقول إن وقت
التأسي لحالة الفلاح والبناء عليه لم يحن بعد

من على خطأ ؟ من على صواب ؟

الفريق الأول يقول إن الفلاح قد يفقد الأرض التي كان فيما سبق يتمتع بها قانون نزع الملكية حرمه من جزء هام من أرضه. ثم أوامر الحظر لمصادرة على الأملاك التي كثيرا ما تأتي بسبب خروجه عن القانون ويتورط الفلاح من حيث لا يدري فتصادر أملاكه بسبب عمل إجرام ما

ومن بقي من همة تكسره الأيام وعنت الوضع وهو - كما يرى معرض لأشق الأعمال كلها حراسة الغابات، النقل الرسمي شرطة القرية. وإذا شئنا الاختصار نقول إنه مثقل بواجبات كثيرة دون كثير من الحقوق، إذا ما قورن بزميله في فرنسا أصحاب هذا الرأي من أهل المنطق والحسابات الحادة المطلعة الذين سيقنعونك بيسر كبير

أما الفريق المقابل فيعارض هذا الرأي قائلا: لقد وجدت مظلمة دائما في التعامل مع هؤلاء الفلاحين؛ لا نقاش في هذا الأمر، وإذا كان هذا التفاوت وهذا النقص الفادح في العدالة في معاملة الفئة التي نحن بصددها أصبح اليوم أكثر من ذي قبل فإن ذلك قديم معروف متعود عليه لدى الأهالي.

نلاحظ في كل من إنجلترا، ألمانيا وفرنسا تفاوتا كبير بين أصحاب الثروات الطائلة لسبب واحد هو الصراع الاقتصادي، فهذا الأخير هو الذي سمح بوجود هذه الأوضاع أنه مرض من أمراض العصر، إلا أنه مرض غير خبيث.

إن هذه الطبقة العاملة، والتي كانت بالأمس القريب طبقة ملاك صغيرين، بلا مداخيل، مجبرة على العمرة باستثماراتها التي يبيعها الناهبون في ظل عدم الاستقرار والفقر أكثر فأكثر

إذا كان عدد الملاك قد نقص في الجزائر فإن الأجور قد ارتفعت بطريقة مشهودة، إن قطعة الأرض التي كانت بحوزة الأهالي لم تكن تجني له من الربح أكثر مما يتقاضاه ليوم في ورشاتنا إن شبكة الطرقات والسكك الحديدية، وكذلك ما تم تشييده هنا وهناك من المرافق العمومية هي ثروة ذات منفعة عامة لا شك أنها لولانا لما كان الأهالي ليحلمون بها.

ما الرأي السديد في كل هذا ؟

في الواقع، من الخطأ أن نهلل لسعادة محمد بن مبرك للرخاء الذي عمه، ومن الخطأ كذلك أن نصوره بكلمات مسمومة خبيثة على أنه يرزأ في أعظم شقاء.

قد عاش الملاح منذ القديم على الكسرة والماء. كسرة
قمح صغير أو مرة حسب المنطقة وحسب الفصل ... كما يعيش
على الحشائش بسبب نقص شديد، حالة في ذلك كحال
المرضى الذي بد هم الضياء في الحظائر المغروسة. و بسبب الفعل
المعيد أو المضرور حالة الحقيقية هي أن تدني النسمات
المرة حتى يأتي الجوع، ولقد رأيت حلبا - ومرارا - تلك النساء
مسه بالوجوه التي اقتسدها الشقاء، وسخنها الجوع، وهن
مكبات سيقانهن العارية على الأرض اليابسة على أمل اقتلاع
بعض الجذور القابلة للطهي والأكل، بأي شكل من الأشكال ثم
ان مسكن الملاح هو القربي أو الخيمة القديمة، ذلك من قديم
الزمن مساكن غير مريحة : برد قارس في الشتاء وحر قاتل في
الصيف

البرنوس الصوفي والقندورة الكتانية هما لباسه بامتياز،
معرض لكل الأمراض والأوبئة التي يعرفها كلها، كثير منها
سلبه بعض سنه وخلف له دموعا علمته المواجهة بصبر وسلوان،
لس والسبطلين لا يعرفهما أبدا، أو أنه هو الذي لا يطلّع على
حاله ولا يشه إلا أنه مصاب بهما، يكتفي في النهاية إذا ما
سقط كجذع الشجرة منهكا للموت بترداد عبارته المرجعية

مكتوب ربي - تلك كانت وضعية الملاح قبل 1830، وتلك هي
وضعيته اليوم، مع اختلافات طفيفة.

أنقول أن الوضعية لم تتغير تماما ؟ لا طبعا لأن هنالك واقع
جديد هو أن الجزائر بصدد مرحلة رخاء غير مسبوق. ولا بد أن
هذا الرخاء الذي هو حصيلة جهد المزارعين والتجار والصناعيين
والموظفين. قد عاد على الملاح بنفع ما، إلا أنه لم يستفيد بنفس قدر
غيره

وهذا هو النظام العادي للأشياء، بعد يصنع فرحة البعض لا
يصنع بالضرورة فرحة البعض الآخر. لذى هو الملاحون وهو أمر
كنا قد أشرنا إليه في أكثر من موضع، والهدف الملح اليوم هو بلا
ريب إعادة الاعتبار لهذا الفلاح الشيء الذي إن لم يتم أدى إلى
التشكيك في الرخاء المذكور أعلاه.

إن برامج تحسين وضعيته لا غبار عليها عموما، وسيظهر هذا
ساعة تطبيقها لا شك في ذلك.

هذا دور هيئات الاحتياط وصناديق التوفير التي يعمل هو،
حربيا، على تدكيد موارده بشكل ما (مدخول اليوم يحادي 25
مليون). المبلغ محترم ويسمح بتحقيق الكثير إن لم تسقط مصيبة
ما تأكل ذهب البلد.

إلا أنه لا مهرب من انتقاد هذه الهيئات لأنها من خلال التوزيع السيئ للأموال، لا تقوم بواجبها المذكور أعلاه. إلا أن المؤشرات شتى تعد أفضل أهم الإصلاحات الواجب التعجيل بها كما قلنا مرارا فيما سبق هي أن يصبح المسؤول الوحيد عن تحديد قوائم المستفيدين من القروض والتعويضات هو رئيس البلدية وحده وإنما ندعو المسيرين والحكام أيضا إلى السعي حتى "الدواوير" لمعاينة ذوي الحاجة الحقيقيين، بهذا الشكل فقط يمكنه ضمان نزاهة العملية

إن هذه الهيئات شيء هام جدا ولو ضمن صلاح عملها وتحسينها وضمن توسيعها على نطاق محلي فإننا سنضمن تغيرا كاملا للأوضاع، وانتشارا للتضامن

ولا بد من أن نتذكر دائما أن الفلاحين - بحكم ديانتهم أصلا- أناس مجبولون على التضامن إضافة إلى كوننا مؤمنين أشد الإيمان بالمبادئ الاشتراكية التي لا نفتأ ندافع عنها. ونردد بناء على ذلك الكلام حول أهمية المكاتب الخيرية أيضا من الأعمال الهمة التي تسد حاجات الكثيرين ممن هم في عسر

من أجل تحسين الوضعية المادية الفلاح أيضا يأتي إنشاء التماس عيادة بلدية. إن أطباء التعمير والمساعدين الطبيين يقومون

بعمل جدير بالحمد والثناء ولا يلتفت أحد إلى الأقاويل الحرجة والانتقادات السلبية التافهة التي تأتي لتحصر عمل هؤلاء. وما ذلك إلا تجل صارخ للنفسيات المريضة ولتجليات النفسية المرضية

لقد استقبلت هذه العيادات عام 1911 حوالي 12000 مريض من ضمنهم 2000 امرأة و1500 طفلا [1] والفلاح يقصد هذه العيادات لأنه ليست بعيدة عن مسكنه، ولأنه يجد في الممرضين المسلمين عزاء أكيدا. إنها مؤسسة ممتازة جديرة بالتشجيع وحتى بصرف العلاوات والزيادات.

أخيرا، وجب ذكر كون المساعدات المقدمة للهجرة من أهم ما يحلي من همة الفلاح، تخيلوا النتائج التي كنا سنبلغها لو أننا صرفنا ما أضعناه على إنشاء المدارس (الأكواخ على رعاية المسنين والعجزة)!.

إن هذه نماذج من الإصلاحات الإيجابية التي تعمل بلا شك على تحسين الوضع المادي للفلاح، وهو الميدان الرئيسي الذي ينبغي أن تصرف فيه الأموال الجزائرية

ومع ذلك فالوضع يظل مزريا إلى حد بعيد، ولاسيما وضع المرأة؛ إن المسكينة لا زالت أمة تستعبدها الأشغال الشاقة ولاسيما

1 H. LAMON: Algerie musulmane

حتب الذ، وجمع الحطب وهذه الأخيرة مهمة لا بد من التفكير في عنائها منه ويكاد لها أكثر معاناة من الرجل نفسه من نظام الخماسة الذي يحرمه في كثير من الأحيان حتى من الاعانة الضرورية للروح

إنه نظام "الخماسة" هو الجرح العميق للفلاح الجزائري إنه السبب الرئيسي لتعاسته (النظام الذي يجعل المزارع لا يعطى عمله سوى خمس نصيبه)

إن هنالك وجها من وجوه الانتقاء يكفي وحده لتحكيم فكرة هذا النظام من أسسها : ففي حين تتعقد أعمال الفلاحة من عام لآخر، نرى مدخول الخماس يتناقص من عام لآخر، وذلك بلا من تزايد (أو على الأقل المحافظة على الوضع على ما هو عليه).

فمثلا تتزايد من عام لآخر بفضل الآلات والماكينات، والخماس لا يستفيد من هذا الوضع المتطور والسر يكمن في عقلية المزارع المتحضرة فهو، بتطور الأعمال يجد نفسه مجبرا على استدعاء عدد متزايد من الفلاحين في كل سنة في حين أن النصيب المحدد للقسمة (الخمس) يظل على حاله رغم تضاعف عدد المقسوم عليهم الأمر المؤدي إلى تناقص حصة كل فلاح

ولنحكم على الوضع بهذا المثال

يحرث 80 الى 100 هكتار من المرتفعات يحتاج الى ثلاثة محاريث، قديما كانت المهمة تحتاج إلى الخمسين أما اليوم ومع تطور شكل العمل فيحتاج الى جانب كل محراث إلى ثلاثة خماسين، والواقع أنه يوجد دائما 4 خماسين أي أن عدد العمال قد تضاعف، وبذلك سواء كانت سنة جيدة أو رديئة فالارض حسنة التربة يعطي الهكتار الواحد المحروث بالمحراث الفرنسي فيها مردودا يقدر بـ 10 قناطير من القمح

3 محاريث تعمل في 30 هكتار تعطي 900 قنطارا، 1/5 منها يعادل 180 قنطار هي حصة الخماسين، هذا المقدار الذي كان يقسم قديما على 6 خماسين صار يقسم اليوم على 12 خماسا، حصة كل واحد لا تتجاوز 15 قنطار، مدخولها (على اعتبار 25 فرنكا للقنطار) لا يتجاوز 375 فرنكا

فاذا افترضنا أن القنطار الواحد يعطي 20 قنطار - وذلك لا يحدث الا في أحسن أحسن الأموال- فالمدخول لن يتجاوز جمع أصل المرضيات 750 فرنكا أي 60 فرنكا لكل شهر

ما هذا ؟ من القالة حتى بني صاف، شعب برمته مجبر على العيش بهذا الشكل المزري ؟

صحيح أن ذلك أن عائلات الخماسين كلها كثيرة الأفراد.

وقد يبين من علامات ترجاه -كما أسلفنا-

عائق آخر من عوائق نظام "الخماسة" يكمن في أن الملاح لا يحصل على نصيبه إلا في نهاية الموسم، فعندما يستخدمه مزارع ما لا يكون لديه مال مدخر لذا فهو يقترض كل شيء فيدفع إزاء كل ما يقتنيه ثمنا هي أضعاف الأثمان العادية (وهذه طبيعة القروض)

من جهة الأجر الذي يعطيه المزارع المستخدم للملاح فهو يكاد لا يساوي شيئا، لهذا يجد نفسه مجبرا على الاستدانة بالفوائد. إنه من الغرابة أن نجد لدى أهالينا الأذكياء تحريما قاطعا للقروض المتعارف عليه في المصاريف والتعاملات والذي فائدته 5% لكن نجدهم يتقبلون ببساطة قرضا آخر نسبته 100% ! القروض الأولى محرمة باسم الشريعة الإسلامية، أما الثانية فهي تنهك الملاح لأنه يقترض في مارس ما قيمته 40 فرنكا ليرد دينه في غشت وقد صار 80 فرنكا.. ولهذا الأمر منطقه لدى الفقهاء المشرعين وحتى لدى الملاحين أيضا تباعا لذلك [1].

- الأمر مجرد تحايل من الفقيه بعد طلب ولكن مشكل لدى معرفه

هنالك أيضا القرض الذي مادته مال صرف وفائدته سلعة. فكثيرا ما يقترض الفلاح 20 فرنكا في الربيع مثلا على أن يصاحب رد الدين في الصيف كمية من القمح تعادل 10 فرنكات، وكأنها فائدة بـ 50% لمدة 3 أشهر.

هاتان العمليتان يشرحهما المشرع "سيدي خليل" ويفرد لهما فصلا كاملا، إنه لمن الغريب أن يحتوي التشريع الإسلامي المعروف بنزاهته الشديدة (خصوصا بالنظر إلى الفترة التي جاء فيها) عمليات مثل التي ذكرناها.

ثم إن الأمر قد ساء، لأن كل قانون معرض بالضرورة للتحريف.

لقد حدث أن حاولنا شرح محاسن الفوائد على القروض التي تتعامل بها البنوك وبينا أن ما يصاحب الديون في المعاملات المذكورة أعلاه يعادل مالا ومالا طائلا، إلا أن السمعي جاب

لا نقاش ! هكذا قال الأستاذ !

إن هذه المعاملات قصيرة المدى واسعة الأرباح قد تفشت وتجاوزت الأهالي المسلمين إلى المعمرين المسيحيين وخاصة اليهود الذين التفوا إلى الفائدة الكبرى الكامنة خلف هذا الإجراء

الإسلامي فرضوه بالإسلام دينا للمعاملة وكلما نعي ما خلف من
باسم حرض المسيحيين و اليهود من أضرار على المعوزين.

المدارس محاكم والمدير كل من يفقه حرفا يمدح هذه
المعاملات المهلكة ويختفى خلف الدين مبررا رأيه ولا أحد يلتفت
صوب الحق والواقع أن كل من يتحدث عن هذه المعاملات هو
بصدد تحضير نفسه لمرحلة الاستفادة بدوره من أرباحها.

كيف يمكن بعد هذا، أن تفسر الثروات الطائلة التي
تتحقق بسرعة خرافية على عاتق الفلاحين ؟

من الأهالي الذين يخضعون لهذه المعاملات فلا نملك إلا أن
نذرهم فحوع مهلكة كما يقال، فإذا عجز بعد ذلك عن
التسديد فلا عزاء فلي الأمر !

حدث ذات مرة أن أحد القضاة كان في مواجهة دعاوى
قضائية بقروض غير مسددة، ورغم الكمية المذهلة من الوثائق
تؤدي بالمقترضين الى الهلاك الا انه قرر الا يحكم بشيء في حق
هؤلاء سوى رد ما حصلوه الفعلي من القمح وهو اجزاء صغيرة من
أصل الدين كانت احكامه مدوية الى درجة ان المتعاملين بالربا
عوا من وثائقهم مصطلح "الطلق" وعوضوه "بالفروض" فما كان الا

ان حكم القاضي المسكين فيما بعد لاحق من الدعاوى بما شاءه
المقرضون على المقترضين.

هذا يشيها إلى حد ما بمدى خطورة هذه المعاملات وما علينا
سوى معاينة العدد المهول من القضايا المثيلة التي تظهر كل خريف
لقد صار شهر سبتمبر لشهر المفضل لدى المحضرين القضائيين
المترجمين، كتاب الضبط والمحامين.

هذه هي اضرار نظام "الخماسة" والحال تزداد سوءا في فترات
الازمة ففي السنوات الاخيرة أدت وفرة اليد العاملة الى تدهور حال
الفلاحين الى درجة لا تطاق، لقد شهدت حالات دفع فيها الفلاحون
رشوة للمعمرين كي يدرجوهم في الخدمة.

هل يمكننا ان نحلم بأن تتحسن ميكانيزمات هذا النظام
المهلك ذات يوم ؟

لاكيد انه لا بد من تغييره و صلاحه، لاكيد أيضا أن
حركة الاصلاح لا بد ان توكل إلى اشخاص لا صلة لهم بالخواص
الذين سيرون ذهاب النظام الذي يضمن لهم الثروات الطائلة
فيعملون بذلك بكل جهدهم كي تستمر الأوضاع على ما
هي عليه.

بعد حدث منذ سنوات أن أنشأ أحد الأهالي المتنورين تعاونية هدفها محاربة فكرة رشوة التوظيف التي ذكرناها، ورغم ضيق رأسمال التعاونية فقد انضم إليها مجموعة من الفلاحين إلا أن الأمر لم يرق لمعمرين فعمدوا عليه بأن كتب أحد المعمرين رسالة مجهولة يصف تعاونيته بالرغبة في الثروة وتقدح في "الشاب التركي" الذي يسيره. ومن كل من المسير في إطار التهدئة التي هي دوره الرئيسي إلا أن نصح الشاب التركي الذي كان يعرفه جيدا بأن يحتفظ لنفسه بنواياه وأفكاره الحسنة.

لا يلومه أحد، إلا أننا نقر ونؤكد بأن الإدارة هي وحدها الكفيلة بالتدخل بإصلاحات جدية في هذا النظام الجائر، وستكون مدعوة جيدا لكي تثبت مرة أخرى بأنها ليست بجانب مصالح ملاك الأراضي.

إننا نقول كلمة حق لا لصالح الإدارة دون أن نكون من يبالون بوصفه أو سخطه مقدما أننا ننظر صوب هذه الإصلاحات بنفس ما أنتج بعين الرضا والاستحسان ونغتنم هذه الفرصة كي نشيد بمبادرة أتتها الإدارة بإنشائها للتكوين في زراعة الكروم، وهي مبادرة تدل على الرغبة في تطوير اليد العاملة للأهالي، إذ أن 60 قبائليا شابا بصدد التكوين حاليا، والنتائج المحصلة ممتازة

وسيكون من المفيد جدا تشجيع هجرة الأهالي صوب فرنسا، ففي ذلك دعم مادي ومعنوي معا.

منذ شهر أنشأ أحد المسلمين مكتبا لتنظيم هجرة الأهالي وتدبير أحوالهم ووظائفهم في فرنسا، وهذا النوع من المبادرات من شأنه التخفيف من أضرار ظاهرة نظام الخماسة

من جهة، سيعمل اندماج عمال الأهالي وسط الورشات والمصانع في المدن على تغيير الهيئات وتخليص أبناء ديننا من أحكامهم المسبقة، ثم إن معايشتهم للوضع الحضاري فيما وراء البحار سيجعلهم واعين بالعظمة الفرنسية وهو وعي سيتسرب منهم إلى غيرهم عند عودتهم.

أما من وجهة النظر الاقتصادية فإن تواجد هؤلاء في ميدان العمل الفرنسي ومنافستهم لليد العاملة الواردة من بلدان مثل ألمانيا، إسبانيا، إيطاليا وبلجيكا، سيسمح ببقاء جزء هام من الثروة الفرنسية على الأرض الفرنسية.

أما من ناحية أوضاعهم المادية، فالخير أظهر وأعمق، فالأجور مرتفعة في فرنسا أكثر مما هي عليه في الجزائر، فالقبائلي الذي يربح 6 فرنكات في توكوان أو في ليل يمكنه توفير نصفها لأهله في الجزائر.

ها هي ذي كلمات للسيد هوج لورو Hugues Leraux تقطر حماسة وبلاغة عن ورق جريدة لوبوتي مارسييي Le petit marseillais

ثم انهم (القبائل) يلحقون الخير بالجميع، إنها أموال طائلة تتهاطل على الملاك مع نهاية كل أسبوع على شكل طوابع لتحويل الى درجة أن العمل تضاعف ضعفين كاملين، أكثر من سنين ونصف ثم تحويلها خلال أشهر قليلة فقط صوب جبال جرجرة وعدة أكمادر وقرى سدعو أين لم يكن للناس شغل سوى التفرج على الوقت يمضي فيما الكلاب تنبح أطلال لوهمية

ان المعمرات الإسلامية أحسن حالا –حسب السيد ليال في جريدة لرشيدي- من باقي المعمرات المتموقعة في المدن الكبرى وعلى كل حال فإن النتيجة هي عمال وجنود لصالح فرنسا، ورخاء ونعمة لصالح الأهالي هذه هي لوصفة المثالية للهجرة المثلى

قد تكون هذه الهجرة حلا لنظام الخماسة الجائر، إلا أننا نتساءل أليس بإمكان الادارة لتي هي الراعي الرئيسي لرعاياها الأهالي أن تتدخل من أجل تنظيم عمل هذا النظام باقتراح حلول من قبيل تحديد عدد لعمال على المحراث أو إجبار الملاك على تشغيل عمال مياومين (ذوي أجرة يومية)؟

أليس بإمكان الإدارة إنشاء تعاونيات من خلال جمع شمل ملاك ومزارعين متجاورين لأجل انشاء تعاونيات إنتاجية واستهلاكية في صلب أراضيهم الزراعية هدفها تسيير حال لخماس وإرساء نظام الخماسة على قواعد غير التي هي عليه

ان اصلاح هذا النظام ممكن بل إنه ضروري لقد اعلينا كل الاصوات الممكنة من أجل اظهار المدى الكبير للشرور الذي يحتويها هذا النظام، ولا زلنا نصرح بكل الطرق بأن الادارة الفرنسية قادرة على تغيير هذه الحال. وستتمكن بذلك مما لم يتحقق منذ قرون طويلة بتحرير الفلاح من أحماله القديمة

أرادت أن تنال الاحلال وربما الخلود فعليها ان تعمل على الانتصار للطبقات الاكثر حرمانا هؤلاء الفلاحين الذين لا يملكون لا ذهب الاعيان الذين يمكنهم من الاستغناء عنها، ولا بلاغة النخبة التي يسمع صوتها دائما من به صمم

اضافة الى كونها الاكثر عددا والأكثر ضرورة للنماء والرخاء وقد وضحت التجارب مرارا أننا لا نستطيع تسيير بلاد برمتها بالارتكاز على الأقلية.

ثم ان نتساءل ماذا جنينا من الامتيازات لتي مكنا منها تلك البرجوازية الكسولة المغرورة؟

هل أعطت هي هذه الشبيبة من الأهالي الذين درسوا على مقاعد المدارس الفرنسية والتي لا يمكن أن نغفل قيمتها رغم الانتقادات الموجهة لها ؟

لا، فقط، هذا الجيل يعود فضل إنشائه إلى سواعد الفلاحين العاملين بصمت وجد

الحل عندنا مثلها في فرنسا في القرون الوسطى إذ لا يمكننا الاعتماد على أبناء الطبقة البورجوازية ليوصلوا إلى أعماق الجبال والقرى القبائلية الأفكار التنويرية والأحكام المستحسنة للتقدم

وسط أبناء الفلاحين فقط يمكننا أن نجد الأفراد الذين يسهل إدماجهم فورا. الشعب وحده يمكنه الارتماء بين أحضان أمه بالتبني خلوا من كل أفكار مسبقة هو وحده يمكنه أن يمنح أبناءه يدا عونا مستقيمة. لأن الأمر لا يخلف عنه شجنا على ماض ولى ولا على حاضر ما. إنه عاجز عن تقنيع أفكاره ومشاعره، إنه لا يفكر في غالب اليوم ما كان يكرهه بالأمس، فالأمة التي أعطته التربية والتعليم، والتي تعمل على حمايته وحماية أهله ورعاية رزقه وحقوقه هي أمة سيرتمي بيسر بين أحضانها.

لن يعمل الشعب ذلك بالحرارة المرجوة على الجبهة الفرنسية، إنه شعب لا يستطيع فعل ذلك لأسباب تاريخية، إلا أنه سيعمل شيئا هينا على الانتماء إلى العائلة الفرنسية الحاضنة له

بدلا، ستتحرك البورجوازية المهانة ستفهم أن هنالك بناء لم تشارك هي في إنشائه وفوتت الفرصة على نفسها للريادة في هذا المشيد، ولا شك في أنها ستتهافت صوب ذلك البناء لاستدراك ما يمكن وتتمنى أن تجد البناء بأبواب مغلقة مكتوب عليها "ممنوع الدخول".

سنتناول فيما يلي أمراض هذه الطبقة نقلا لمقاطع مما كتبناه –وأسال كثيرا من الحبر وحرك كثيرا من المشاعر– على صفحات "لاديباش دي كوستانتين La Dépêche de Constantine"

الفصل السادس

أمام أسوار التعصب

سيصدر بعد أيام كتاب لا بد أنه يحمل إنارة جيدة من خلال وثائقه لأوضاع المجتمع المسلم في الجزائر عموما، وفي قسنطينة على وجه الخصوص.

لا شك أنه سيروق الجميع، سواء أكانوا على صمة الأهالي وكانوا من مؤيدي الخرافات والأحكام المسبقة، أو كانوا على الضفة الأخرى من الحاملين بتغيير الروح المسلمة، كلهم سيقرؤون بشغف.

سيحمل هذا الكتاب بين طياته ضربة كبيرة -كما نأمل- للخرافات التي جاءت لتعقد معتقداتنا الدينية التي هي في الأصل بسيطة سيساهم هذا الميسم المشتعل متى ما وضع على إحدى أفدح جروحنا الاجتماعية -التعصب- في الإسراع بالجموع صوب التحرر الذي تعمل عليه فرنسا على قدم وساق في شمال إفريقيا.

كتاب هلالي رزين، لا عنيف ولا عدواني، صادر عن ذهن حصيف لرجل معروف، طريقته هي التمهيد لأفكاره بسلاح الإقناع

لا أحد سيحرز على الحاق تهمة الجهل ولا التحيز بمؤلف هذا الكتاب لعبد محوي عبد القادر لم يحظى به من تقدير لدى المسلمين ولدى الأوروبيين ولاحاطته الجيدة بشؤون الأهالي. وكذلك بفضل شعبيته في البلاد التي أعطاها 40 سنة من حياته معلما ملاحظا من خيرة الملاحظين، الأستاذ الفصيح في المدرسة العليا للجزائر العاصمة معروف في الدوائر المثقفة بفضل أعماله السابقة المبنية عن فهم سيكولوجي عميق وتفكير دقيق رصين والكتاب الذي هو بصدد الانتهاء منه سيمدح كثيرا لصراحته وتوثيقه الجاد، وهذه هي حيثيات الكتاب

في شهر افريل من عام 1910، ظهر في العاصمة على صفحات النجم الإفريقي التي يشرف عليها السيد المحترم كحول، مقال فيه نقد وتهكم لاذعان للأحكام المسبقة وللأخطاء الجسيمة للعالم الإسلامي، وبما أن كاتب المقال كان السيد بن موهوب فنزل وبال من السخريات على أهالي منطقة قسنطينة والواقع أن الشاعر لم يفعل سوى إعادة ما لقيصر لقيصر، ولا أحد سيكتشف المجلة إذ

قال أن ظلمات الجهل أشد حلكة في قسنطينة منها في مواضع أخرى؛

انه لقدر غريب ان يكون هذا هو مصير المدينة التي شهدت مولد ابي البركات بن باديس، عبد الكريم بلفقون، للشيخ لحمصي، عبد القادر الراشدي وجمهرة أخرى من أهل العلم

كان لذلك النقد إذن وقع معين وكان أن خرج تلك الثلة التي تحد من صفة "عربي" و"مدني" لافتة امتياز وعلامة تفوق، تلك البرجوازية المغرورة المتفتحة كالديكة والتي يملأ أهلها ساحاتنا العمومية ومما تسمى مدينتنا.

وليس الامر بالجلل في الواقع لأن العصبة عصبة طبقة ذهبية خالية من كل هيبة. كل ما حدث هو هزة أصابت خمول هؤلاء الكسالى وعدم احساسهم وحسبنا فعل من فعل !

معروف لدى الجميع أن البربر هم من يأهل هذه المنطقة من شمال إفريقيا منذ أقدم الأزمان . لقد لاحظ ابن خلدون في "المقدمة" قلة أعداد العرب الأصليين هنا وذلك حتى في لمدن المنطقة بعد الرسول - ص- .

إننا نجهل أصل سكان هذه البقعة بالتحديد -وذلك رغم الأعمال الجادة لمباحث الأستاذ كوليبو في تونس- ما نعلم

يقينا هو ان هناك متنوعة من المهاجرين قد مروا بهذه الارض
تركيين ميراثهم ولغتهم ولهذا فإننا سنستغرب وجود لفظ يهودي أو
فينيقي في "الأوراس" او في جبال "تابور"، الا ان هذا لا يعني
بالضرورة وجود وحدة معينة في الأصول بين هؤلاء جميعا

ابيقين الآخر هو ان العرب قد ادخلوا الإسلام الى هذه المنطقة
لا ريب في ذلك الا ان القرون الاخيرة الصامتة تجعلنا نتساءل عن
النزعات الظلامية و الفكر الغيبي، ما اصوله وما خلفيات، أم انه
هو ايضا ركام من الاشتات ؟

ينقل الأستاذ مجدوي بعض صور العلاج من المس قائلا
" وإنك أيها المشاهد المنطقي العاقل ستتفاجأ لا شك و انت ترى ما
لم تره عينك من قبل!

افراد من الجان من البلاد و حرون من السامة وست السلاء
يسكنها سكن من سلاء العالم الآخر، والسيدة اذا شفيت ممن
تتقاسم مع زوجها مفاتنها السيدة تقيم حفلا صاخبا عرس كبير
بمناسبة خروج ضيف الشرف النبيل الذي ستتوسله مرة اخيرة ألا
يزورها ثانية مشاهد في قمة الغرابة. وكلام أغرب من المشاهد
(إلا اني أطمئن المشاهد غير المعود على كل هذا أنه لا خوف على

عقل عاقل ولا على منطق صاحب المنطق رغم أن ما يراه مقرف
مقزز مثير لكل من له أدنى درجات الحياء والكرامة!!).

"ستأتيك مراسيل الدهشة ويأخذونك على عجلة من ساعتك
إلى أراضي الاستغراب النائية، وستجد نفسك بلا ريب في سؤال
وحيرة: هل أنا في منام أم أنني صاح ؟

"أدهش ما سيدهشك هو تلك الشاة البيضاء الناصعة، التي
تلاعب بها القدر فأبعدتها عن ذويها ورمت بها وسط عالم السحرة
والمشعوذين هذا تحيط دائرة دائرة من النساء، "الشوافات"
ومساعداتهن، وبعض المريضات، كلهن بألبسة باهرة وحلي فاخرة

وتقف على الشاة المسكينة التي سيتم حرقها فإبعاد الروح
الشريرة التي أصابت إحدى الحوريات البريئات في العمر الناصع
لحياتها الغضة تقف إذن بلباس ناصع البياض، وزينة مثيرة وحلي
مدهشة، تمسك بيد سكين أو سيف، وباليد الأخرى تشكيلة من
الأشكال الغريبة والأدوات والأحجار العجيبة التي تحركها
بحركات غريبة وتضرب بها صدرها ثم خصرها وحاجبيها وكل ما
يمكنها بلوغه من أعضاء جسمها.

الشاة نفسها مزينة محلاّة بعناية فائقة، ذهب، فضة، ألوان،
أحجار كريمة، تقاطعات براقة على الوجه وبين العيون، خيوط

مرهه تلج اصواق ملونه وتسع الدثرة المذكورة بعنة ليعم لصمت قاعه العلاج (لأن الامر امر علاج في النهاية) فقط وصيفتان مقرفصتان تطلان قرب المسكونه يمسكان بذراعيها فيما جسمها يتحرك جيئة وذهابا يمينا وشمالا متخذا بين الحين والآخر غرب وادس بوضعيات والأشكال والتشنجات الممكنة

ثم تصيب الحرارة المشهد كله فيعلو صوت الطبلات الصغيرة وسط الهرج والمرج للمصعدين على جنبات الولولات الصاعقة. والحرارة والأبخرة تتصاعد من الجمع المنفعل لتتفاعل حدّ حنقك وتعميتك

ويدوم المشهد الى ان تسقط "المسكونة" أرضا منتشية داهما رشدها وسط البخور. ونجلب اذذاك الخروف لأولئك المنتظرات الوقت بكثيرات واللواتي ما أن يتعين حتى يشرعن في "التضحية" نحر الشاة الى مكان الذبح وسط الثغاء والشكوى الحيوانية للحمر" المرعب حتى اسمه. أما "الله" العلي القدير فلا يجرؤ احد على ذكر اسمه، وعند مذبح القرابين تمد الحورية المسكونة المسكينة يديها مرتجفة لالتقاط الدم المقدم ثم شربه وهو ما تفعله الحاضرات جميعا الواحدة تلو الأخرى، حتى تتالهن

قدمته الدم لأني من ذبيحة ذكر عليها اسم الجن لا اسم له العلي القدير

ثم تشرع الأصوات كلها نغمة في لتناقص هل هو هذا المهدي العريس الذي فعل مفعوله ؟ لا. بعض المغنيات اللواتي ينادين للعشاء، طاولة فخمة فاخرة عليها ما لذ وطاب من مختلف الأطعمة هنا، على هذه الطاولة سيملأ الجن وتمرة معداتهم لفارغة، بقية الطقس المحترمة بعناية كبيرة هي الاكل، الحديث وتبادل الانطباعات حول ما ألمّ بهن من مشاعر أثناء الرقصة في هذه الأثناء يقرر "الجن" ان كان سيرحل أم لا !!...

وتحلّ هنا في حضرة امرأة مريضة، بضيف مجاوي ملك الجان هذا الذي يتنزّل من الأعالي والذي لا وجود له إلا في أذهان شعب متخلف تغمره الأحكام المسبقة، هل هو موجود ؟ هذا الملك الذي أتانا من عالم الأخطاء والجهل هل سيذهب لسكنى آخرين ؟ إطلاقا، في العام الموالي وفي الوقت نفسه سيعود لسكنى جسم التي استقبلته أول مرة ستكرم بها العادة

وهذه هي عادة تختص بها طبقة معينة من أبناء الأكثر الفلسطينيين. أما موظف مثلي ومثلك، أو فلاح أو أي شخص حر

فلا جدارة له لكي يحصل استقلال كأس عالي لمدن ...
الطريقة برفقة
من نستطيع أن نعمل فلا بد أن نستصرف روحاتنا وأحوالنا
عن الأمر لبطل لأهله أليس كذلك ؟
من هذه الأمور سببه اتفاقه ؟ لا شيء سوى عادة شاذة اخترعها
ويحفظ عليه ... شاذات يفعل كما يقول محدوي عن
صدق - على حلاء بيوت عوائل كثيرة، إن هنالك الكثير من
الرجال يسيلون دمهم لاشباع الرغبات الشاذة لنسائهم.

هذه الحادثة مصائب فعلاً" ونضيف إلى قول العالم الجليل
بأنها مصائب كبيرة إلى حد العجز عن معالجتها لكثرة ما
يوجد من العوائق في مسيرة هذا الصراع...

هذا هو نموذج من العوائق. ولنتأمله إنه دال على الكثير
تعرفون جمعية صالح باي، وتعرفون هدفها العلمي الثقافي الأدبي
التكويني التربوي وحتى الفعلي (التكوين المهني) والتضامني...
هدف متكامل باختصار شديد- للمهام التي تضطلع بها القوات
العمومية وهي أهداف لا تتنافى تماما مع مقاصد الشريعة
الإسلامية، بل إنها متماشية معها إلى درجة أنه لا أحد يخشى ولو
قليلا من وجود شيء يحدث به حساسية لدى أي مسلم كان.

هل تعتقدون أن البورجوازية المحلية قد شجعت الجمعية ؟ لا
أبدا بالعكس فقد حاربوها بنشاط وشدة وحقد وعداء لا مثيل لهم
ولولا علوّ همة القائمين عليها وإراداتهم القوية، وعلى رأسهم
الميدان ... والعابد لكان المشروع قد أجهض في المهد

ليس لا ... تذكر تلك المحاضرات المجيدة الجميلة والساعات
السعيدة ... كاد من موهوب يمثل خير تمثيل وعي الطبقة المثقفة،
يتساءل الآن فعلا من أين تأتي الثورة ؟ من يطلق صوت الشعب ؟ من
المسؤول عن تشويه النصوص الموجودة في la depeche ؟ اليسوا
... المتطرفين ومرضى النفوس الذين رأوا كرامتهم ممسوسة،
والمساعدون في مهمتهم القذرة ينتصف تقريبه من الطلبة بلا ذمة ولا
ضمير ... ما حصل لعميه قسيط أثناء الاجتماع الأول ثم حدث
التقليد والتعصب وكان ذلك كإعلان الحرب

وهناك سبب آخر يكمن في أن هذه الطبقة البورجوازية
المتعودة على ... الحار وتحبيه الاحتلال، والتي تتخذ من الكسل
وثقل الهمة علامة متميزة وبلا تأكيد لم تع كيف يمكن لحركة
التجديد والانعاش أن تكون موكولة لجماعة ليسوا من أولاد
البلاد"

وستعرض لاحقا لهذا المصطلح وما يحميه. فمعناه المباشر الشائع يحمي كثيرا من معاني تحتيه المصممة.

فهي عاكسة كما في فيه بعض جمعية صالح باي. على التقرب بين العنصريين اللذين أصبحا يعرف القريب والبعيد بمشيئة لعلي القدير يستأهلان هذه النعمة من الأرض. وربما يكفي للتدليل حجة على بل لمهمة أن السيد حاكم مدينة قسنطينة قد ترأس الجمعية شرفيا.

أوردت هذا المثال لنبين مدى قوة عمل هذا التعصب على تثبيط الفكر الاجتماعي في هذه البلاد وهو تثبيط لا يأتي من بسطاء القوم -ولن تتحرج في الاعتراف بذلك- بل من أكابرهم الحريصين، وفي ظل النظام الجمهوري الذي لا يودونه ولا يعترفون به، على مكاسب درت عليهم الكثير يوم الحكم الفوضوي السائد في الفترة التركية حيث يطالب هؤلاء بالمحافظة على التقاليد "الحميدة" ويعلنون "لا مساس بالتقاليد" عليها ألا تنخدع فتظنهم صادقين حريصين على المحافظة على النظام وعلى السير الحسن للأمور. إن ما يؤرقهم هو مصالحهم الشخصية هل تعتقدون فعلا أن المشرفين على "المدارس" وحتى على برامج تعليم الأهالي في المدارس الفرنسية، وهم أنس يؤرقهم مصلحة "الإسلام"؟ كم

سيكون كبيرا تهافت من يعتقد بأن الإسلام هو المسؤول عن خزعبلات يهذر بها لسان شخص تمسكه الجن تعرفون مدى جهل الكتلة، ومدى سهولة استغلال سذاجتها. إذ يكفي أن نعلن بك تتحدث إليهم باسم الايمان، ولن أحيد عن الحق إذا قلت إن ثورة 70- 71 ليست سوى فعل أحد العاصين الذين حاولوا استغلال الخطاب الديني، وهذا الصنف من الأشخاص لا يتعامل بطريقة مغايرة - بلا ريب - مع أولئك الذين يريدون تخليص الأهالي من غيبياته.

ما إن تنتهي المساس بالتقاليد البالية حتى تقوم هذه الكتلة كالغول في وجهك مستعينة بالدين كي تثني كل طاقة مهما كان حجمها، وكي تقهر عزيمة مهما كان ثباتها، وتعيق كل مبادرة مهما كان نبلها

بربكم، قولوا لي، أكان من الممكن لمن قال "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" أن يكون معلما للخنوع والتعصب اللذين ابهى حسناتنا اليوم؟

هذا الرجل العظيم الذي يحظى بإجلال العالم كله، ألم يقم بإدانة الغيبيات والخرافات والطير منذ 14 قرنا؟ باسم من إذن تتحدث هؤلاء المحافظون العمي؟ هؤلاء الحراس أمام ضريح عادات

تريدهم سوءا على خطيئة؟ إنه لا يرفض التقاليد التي توحدنا في
الشرع والصراء، بل إننا نستحسنها في إطار ما هي حسنة
يعلمون الذي يحده من هل أبناء جلدته ذلك الذي حلته مصيبة
أو وباء، أو ذلك الذي يستعد لترويج ابنه، هو شيء حميد لا نستطيع
إلا أن نثني عليه. ما لا نأسف عليه بالمقابل هو أننا دوما نتخلى عن
العادات والتقاليد الحسنة الحميدة لصالح الخرافات والخزعبلات
والجهل، وهذه الأخيرة صارت أكثر بكثير من تلك المحمودة،
وهذه هي نفسها التي جاء السيد الكريم لمحاربتها

إننا نعلم عسر اجتثاث فيروس يتحكم من قرون طويلة في
مجتمع آيل إلى الهاوية ونعلم علم اليقين أن الزمن وحده كفيل
بتثبيت التغييرات التي نحن بصدد الدعوة لها. ولكن ماذا يفعل
إخوتنا لعلاج الشر الذي فينا؟ ماذا يفعلون في قرن التطور والنور
هذا؟ ينامون هانئين هادئين مطمئنين

أثناء تلك الرحلة العجيبة التي قادنا أثناءها السيد محاوي في
دروب السحر والشعوذة كان هنالك رجل يطل من وراء الباب وعبر
الفتحات الصغيرة على استعراض الرقص والجنون الذي قامت به
زوجته، إننا نطالب هذا الزوج المغلوب على أمره أن يأخذ زوجته إلى
المسرح البلدي أو إلى قاعة الأوبرا بدلا من أخذها حيث كانت.

لا، إننا نكتفي بأن نطالبه بالنزر القليل من العقل والمنطق.
هذا الاحتفال السنوي الذي يقيمه كل سنة، وهذه الأوراق المالية
التي تصرف في شرف ملك الجن وملك بروسيب. لماذا لا تصرف
على تربية الأولاد أو على رحلة إلى مختلف مناطق بلاده التي لا
يعرفها جيدا؟

هذا الذهب المدر هباء ألا يمكن أن يصرف في سياقات
أخرى أكثر إفادة للفرد والجماعة وأكثر عودة بالخير على
المجتمع؟ هؤلاء المتسولون الضعفاء الذين لا أمل لهم سوى منحة
المتصدقين وهؤلاء الأطفال المطلقون يملؤهم المرح صوب المدارس
بالشوارع بأقدام حافية ورؤوس عارية ألا يمكن أن يلقوا العون لدى
إخوتهم الذين يذهبون ليرموا قطعهم الثمينة قربانا لسلالة سيدي
مسيدا

تكلموا تكلموا يا سادتي أبناء العائلات الكبرى، حديثنا
إليكم، ولا رغبة لنا في جرح مشاعركم، رغبتنا كل رغبتنا
مصدرها -لو تعلمون ولو تصدقون- هو حبنا لهذا الصخرة
القديمة التي رعت سنوات طفولتنا. لأننا نتصرف بهذا الشكل
لحرصنا عليكم حتى وإن كان ثمن هذا الحرص وهذه المحبة هو
فقدكم إيانا مع أول زيارة تقوم بها صوبكم

هدفه هذا سيشرع في التحقق حينما تتحكك من حرج مشاعركم ومشاعر الشابات راسا، والشابات المغربيات خاصة - لأن الشابة الأوروبية بهيئة ستفقد انحكاكي - ونحن لا نجهل إطلاقا كون بحقيقة ممارسة قاسية لأن الخلف الصالح لسلف صالح لا بد أن يقدر على مواجهة قسوتها ثم أتاهنا لتعريتها سواء أراقكم الأمر أم لم يرقكم

إنكم تكرهون العمل هذا الشرط اللازم لاستمرار الحياة، هذا الأمر الضروري القاعدي لكل كائن حي تكرهون النشاط الذي يجعل الحياة نقية نبيلة وحسنة، هي بالنسبة إليكم عقوبة تكرهون ربح قوت يومكم بعرقكم. إنكم إذن أعداء الجهد، والجهد شرط الحضارة، إنكم أنانيون تأخذون دون بدل، مع أنكم الأمة التي خطها كتابها قائلا : "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض"

لقد حولتم هذه الديانة التي كانت عنوان الصلاح و الفلاح القوة الى ممارسات للموت و للتخلف والظلامية، وذلك بواسطة تراجيكم وسبيتكم احتاروا بين الحياة والموت، لا ثالث بين الاثنين، و الأمر اليوم -إن كنتم تجهلون- حرب، حرب صامتة هذه لا بارود ولا مدافع فيها، بل فيها الملايين

إن كنتم ترفضون أن تصيروا أقوياء فإن عجلة التطور ستفرمكم فرما. لا لأنكم مسلمون -فالحرب الاقتصادية لا تفرق بين الملل والنحل- بل لأنكم غير جديرين بالحياة، فإن كانت هذه هي الحال لمن ترفضكم فسارعوا رجاءً بالاختفاء والانقراض ولننته من أمر أولاد البلاد".

دعوني أولا أقدمكم للجمهور.

اسمكم حسب القاموس هو "أبناء المدينة" أي الذين يسكنون المدينة

وهي تسمية بعيدة عن الواقع، لأن من يطلع على عقلية البورجوازية القسنطينية سيجد نفسه أمام زمرة محدودة من الناس الذين يسمح لهم باحتكار هذه التسمية زمرة محدودة في مجموعة من العائلات، أما بقية الناس فهم عزاة "شاوية" أو "قبائل"

وقد رأينا الحرب الضروس التي شنت مرارا بسبب شعور البعض بالحيف بسبب هذا التقسيم. وكثيرون هم الذين طالبوا بتصحيح الأوضاع من أجل نيل هذا الشرف، فتم مرارا الرجوع إلى البحث في الأنساب "موجب الشجرة" (حسب المصطلح الشائع أي الحكم بموجب شجرة الأنساب) كما أن هنالك من عاد للحصر في تاريخ ابن خلدون لتتبع أثر العائلة وتحركاتها

باختصار وبحكم كون الحانات كلها ملأى، والصراعات كلها مشغولة فقد رفضت البورجوازية الحقيقية على ما يزعمون، تلك التي تحدثت عن "المرمز" حسب الصورة التي يحوي تسويقها كل المترشحين

وبما أن المشكل دون حل إلى الآن، فإن طمعنا لن يتجاوز نقطة محاولة المصالحة لهدنة بين هذين الطرفين المتعاديين، وسنكتفي فيما يلي برسم صورة تقريبية لهذا "ولد البلاد"، ثم أننا نعد كل من يطمع في تعليق هذه التسمية ممن لاحظ لهم بحكم النسب أن نسميه كذلك وليس هاما من جهتنا نحن، الذين لا نطلب أصلا الدخول في هذا السباق

"ولد البلاد" ليس فلاح "شطابة" أو "كركرو" الذي يصنع عربونه هو قطع متنعة و"القاعة" بيد والعصا بأخرى، والذي يهرب ذات برد شتاء من دواره إلى المدينة حيث تدق باب مشغل ماء ثم يستقر هنالك ليتعد له بعد كدّ وعناء وجلد وأصناف من الحرمان مأوى في المدينة

ليس ولد البلاد طالب بال "مدرسة" يقطن بعيدا عن الدفء الأمومي وبعيدا عن أحضان العائلة، والذي يأكل ويلبس ويقضي جميع حاجياته بأقل من 25 قرشا (دورو) يوميا ! ولا هو بائع

المطائر ذاك الذي يعميه طوال اليوم دخان ينبعث من فرن بدائي لكي يعود آخر اليوم إلى بيته بوفير النقود. ولا هو ذلك الفتى الوسخ الذي يملأ الشوارع بصراخه المستمر "سيري مسيو" (هل تلمع الحذاء يا سيدي؟) والذي ينام ليلا، سواء أباردا كان الجو أم حارا أرضا بعد أن يكون قد أجاد إحصاء القروش السوداء التي ربما ذات يوم ستسمح له باستعادة قطعة الأرض التي استولت عليها الدولة بقانون الحجر. "ولد البلاد" ليس الطبيب الذي تعرفونه جيدا، والذي يذهب صباح كل يوم بقامته الحميدة وهيئته الجليلة صوب المرضى والمحتاجين يفيدهم بعلمه وبعلامات تكريسه نفسه للآخرين، والممرض الذي تجده بهيئة مماثلة في مهمة مماثلة يملؤه الجد والنشاط والاستماتة في خدمة الجميع. أهو من "أولاد البلاد" ؟ لا، أبدا. وذلك المحامي الموهوب، ذو الوجه اللطيف، والمظهر الضاحك والنظرة الصريحة، والقلب الأمين. ذلك المدافع الشرس عن الأرملة واليتيم المظلومين. أليس منهم ؟ لا أولاد البلاد فئة أخرى

هؤلاء الرجال الثلاثة ذووا المشية المهيبة والبرنيس الأنيقة، ألا ينتمون إلى الفئة المذكورة ؟ أبدا!. كل من ترونهم، سواء الأنيق والرث ليسوا "أولاد البلاد".

وفي البلاد هو ذلك الشاب ذو الوجنتين الورديتين الذي تراه
يخرج من الحي العربي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا، ساعة
الاستيقاظ من النوم، وذلك الأنيق الوسيم الذي يطيل النظر صوب
السماء، قبل أن يطلق خطوات بطيئة صوب الحديقة جيئة وذهابا. ثم
يجد مقعدا لنزهة من نزهات يبقى ينظر ذات اليمين وذات الشمال يحدق
في كل شيء، ثم يتهيأ بتناسب حليه ويتصرف بالحماس نفسه
ولغرابة نفسه، وبأنه من حمص ثم يا لها من عزيمة ! - ليدرع
سراويل حول و رودي هروس

هناك رؤية من حانة ما، بعيدا عن النظرات المتهمة،
نخبه بعيد من تبادل شرابه المفضل الأبسنت !

في نفس... سيدريو نفسه مع التمهيد الجيد يوم الخميس
وفي المساء الأمر نفسه والموعد في الجمعية. هل تعرفون ما الجمعية
؟ إنها في عموم قاعة كبيرة موقعها مبنى يسمى دار الرسطوط
أو بيت العرب، تنتشر فيها زرابي ملونة تتوسطها موائد عليها
مزهريات متنوعة الزهور ومتنوعة الروائح. وعليها أيضا مسبح نهيج
الذي تعلوه حركات الأسماك الملونة الطبيعة المتحية

يجتمع أعضاء الجمعية كل مساء وسط عزف القيثارة. ولعب
الأوراق وتناولهم مختلف الحلويات المعسلة، إضافة إلى تدخين

الحشيش وحتى الأفيون، فيما إحدى الحوريات مكحلة العينين
والتي هي عاهرة يهودية في الغالب ترقص وتصب كؤوسا
مسمومة. وفي هذه الأثناء تشكي الأمهات والزوجات فيما ينتظرن
هؤلاء المتجولين المتأخرين.

أما لباس هؤلاء المتكبرين المسلمين فهو فاخر ومعقد
برنوسان حريريان بأطراف منتقاة على الكتفين، شريط حريري
أصفر يحيط بكثير من العناية بالخصر، وأحيانا تضاف الى الحلة
صدرية قصيرة (عليلة) تمسكها مماسك، ونريها توشيات رائعة،
ويظهر تحتها الحزام الملون ثم يأتي سروالان وثلاثة لإعطاء مرتديها
انتفاخا جديرا بالطبقة.

اذا ذهبت إلى مصلحة البريد ورأيت أحد المرتدين لهذه الحلة
واقفا محتارا ينظر صوبك بنظرة تردد، فاعلم ان صاحبك من أولاد
البلاد لأنهم عاجزون تماما عن تحرير أبسط طلب أو رسالة إدارية،
أليس هذا الأمر مؤسفا، أليس عائبا ومشينا ؟

تحضرني هنا يا سادتي من أسماء عقيدتي النساء تلك الحادثة
في المدرسة التي أشرف "الرومي" على بنائها، حوالي سنة 1909،
أثناء حفل ما، أين ألقى إثنان من تلاميذ جمعية صالح باي تحت

تلك لعبة ملونة كلعبتهم القاسية التي تعريكم والتي لا أتردد في تذكيركم بها ونعتها حرفيا اليوم مثلما قد فعلت من قبل

سيكون مخجلا لكم أيها الآباء المحظوظون، أن تزرعوا ثرواتكم وتهملوا نحن بعدكم وأسباب ثرائكم. نحن الأعلى من كل الثروات. لا تعلمون أنكم تقتلوننا بأيديكم بتركنا في ظلمات الجهل؟ يا له من أمر غريب. كيف تربون بيوتكم وتفسدون أولئك الذين سيحملونها من بعدكم بواسطة لا مبالاتكم وسوء تربيتكم؟"

هلا تأملتم هذا الخطاب الصادر عن طفل في الثانية عشرة؟ هلا نظرتم جيدا في ثناياه وفي أبعاده؟ لا، اكتفيتم بالتصفيق لمشهد صبيين يتسمان، ضحكتم بأعلى الصوت، وصفقتم بصفتكم بـ الكلام مرحا ما وأنه لسلوك يشبه سلوك أولاد البلاد الذين يرون القيامة قائمة بعد حين دائما فلا فائدة من العمل إذن، لا ترددون دائما مع رجالكم الصالحين: "إننا في هذا القرن ونهاية العالم موشكة. ألم ترددوا مع سيدي ما تعرف" سينتهي العالم وتقوم القيامة يوم أن تصبح الأحمار تسري عبر الحبال" وما نحن ولاد ونحن شهود على مخترع وانتشار التيلغراف نقول علنا

الحقيقة معا وليست مع المرابطين والدجالين والعالم، العالم الحقيقي لم يبدأ إلا الآن!"

إن السيد مخاوي إذ يكتب لأجلكم لا رغبة له سوى تنويركم إنه لا يدعوكم إلى ترك ألسنتكم المقلدبة وهجر مساجدكم. إنه يعلم علم اليقين بأن الفرنسية المهووسة لا طائل من ورائها. وإنه لا يمكن اختراع مجتمع جديد في عام واحد فحسب، ما يريده أيسر من ذلك. فتح العيون جيدا. الثانوية على بعد أمتار منكم. والمدرسة تتوسط أحياءكم والمال في جيوبكم، إن العذر الذي تقرؤه للقروي غير مقبول عندكم فحاجته هو إلى الحمر لأولاده تفوق بكثير حاجته إلى الكتب.

إنكم أرستقراطية. وتملكون السلاح الأقوى. المال، لا تتغاضوا إذن على ما هو حقير كالعادات البالية، والتقاليد الموروثة. كل ذلك من صنع الإنسان وكل ما يصنعه الإنسان فيه الطيب وفيه الخبيث. فابعدوا عنكم إذن ما يدرجكم في مدارج الحيوانات لأن هنالك فيما وراء اللذة القاعدية، والثروة العابرة شيئا هاما الكرامة قرون طويلة من الانحطاط. كفى!

ها نحن في نهاية مطافنا مع كتاب رأيناه هاما على أكثر من صعيد فإن كنا في الإطار الضيق لتحريدتنا قد لمسنا أحكاما قاسية على طبقة معينة من مجتمعنا فإننا قد رأينا للأمر فائدة وإن نصر في هذا المقام على أننا ونحن ننتقد ببعض الشدة هذا مجتمع في هذه المدينة التي هي مدينتنا أكثر من أية مدينة أخرى، لا نعني بذلك إلا ارتباطنا بهذا الشعب وبأهل هذه البقعة المحببة إلى القلب.

إن في نقد س موهوب وهجاء مجاوي أكثر وأفدح وأقصى مما أوردناه بكثير. وقد فضلنا السكوت عن كثير من الأشياء على الأقل في اللحظة الراهنة، الأكيد أننا لم نخترع شيئا بل اكتفينا بالبحث في تفاصيل ظاهرة خطيرة لا بد أنها بحاجة إلى دراسة أكثر جدية وتعمقا

السيدة س ، سيدة شابة وطيبة يقظة الذهن خفيفة الروح، كانت تقول في ثنايا بعض الحديث : "إن إدماج الأهالي والمسلمين عمل يطول. فلا بد من ترك الفواكه تنضج الوقت اللازم".

هذا صحيح، إلا أننا لن نتوانى عن دعوة أبناء ديننا صوب تفكر أكبر لأن هناك تقاليد لا بد من زوالها رغم رغبة الراغبين في بقائها، وهناك أفكار منحطة لا بد من محاربتها بشراسة

إن مساهمة "المحافظة التامة على كل ميراث العرب الفكري والسلوكي" وأفكار ذلك المشبوه الذي أعلن نفسه نصير طور العرب، والذي عراه ذلك الصحفي الذي يبقى صديقا قاسيا وحقيقيا للعرب والأهالي لم تعد مقبولة لدينا لأن سياستها كما وصفها السيد جاك الود هي أن "نظل عبيدا وعملاء تابعين إلى الأبد". في حين يعمل النظام الفرنسي الجمهوري على التوحيد الحقيقي والمزج العميق بيننا وبينهم لأجل ترسيخ العنصر الموحد الواحد

الفصل السابع

النخبة

في مقابلة هذه البورجوازية المحافظة الثابتة لدى أفكارها القديمة وطبقة "العمائم القديمة" –كما تسمى– نجد النخبة تشكل نقيضا حي من هم "النخبة" أولا؟

إنهم ذلك الشباب الناشئ في الجامعات الفرنسية والذين استطاعوا –بفضل عملهم– أن يرتفعوا فوق العامة، ويتموقعوا في الجزائر الحاملين للحضارة عن جدارة، وهو نيشان لا تستطيع منحه لكل أهالي الجزائر.

ومهما كانت تقريبية هذا التعريف فهو كاف لحد الآن، والواقع أن هذه المنحة محدودة جدا، والذين يشكلونها يعدون على الأصابع، وهم أول من يعترف وإذا كان هذا الأمر موسما فإننا لسنا بصدد تحديد سعته ومداه في هذا، وكل ما نهدف إليه هو إلقاء الضوء على مدى صحة التهم إليها وتبيان المشاعر الخفية الواقفة خلف كل تلك التهم، والتي تخفيها الانتقادات بعنفها وعفنها.

لقد لامو ولا يزالون هذه النخبة وبعض وجوه اللوم الجادة منهم كتاب صدر مؤخرا للسيد أسيرفيي[1] حول الوطنية الإسلامية

"لكونهم غير راضين عن وضعيتهم الجديدة كما يقول رئيس تحرير ممتاز لجريدة "لا ديباش دي كونسطانتين"، ولكونهم عاجزين عن لعب شكله إخوانهم في الدين ممن هم أقل تكوينا ولكونهم مغرورين بعض الشيء بسبب شعورهم بامتيازاتهم على إخوانهم، فقد صارت عقول هؤلاء الشباب أرضية خصبة لنمو أصناف من الأحلام المجنونة والأفكار الخبيثة

من جهة، لقد عمل غرورهم واعتزازهم السخيف بأنفسهم على جعلهم غير محببين إلى قلوبنا والنتيجة أنهم نتيجة لعجزهم عن مخالطتنا نحن وعن أبناء ديانتهم صاروا معزولين تماما عن المجتمعين كليهما، وكانت النتيجة - حيث لا يشعرون- امتلاء نفوسهم بشعور المرارة والسخط، وصاروا يعلقون أسباب فشلهم في تحقيق الأحلام التي هندسوا لها على أحد مشجبين جهل "العمائم القديمة"، أو صلافة الأوروبيين ونواياهم السيئة

1- A. SERVIER Le nationalisme musulman en Egypte, en Tunisie, en Algérie

في الواقع، هؤلاء الشباب يحلمون بلعب دور ما في شؤون البلاد ارتكازا قناعتهم بأنهم بلغوا أعلى درجات الحضارة ولم يملأ نفوسهم من الطموح أثرت فيهم الحركة الشبابية لتركيه، والنجاح الذي كلل أعمال جمعية الاتحاد و لنمو وجعلهم كل ذلك يرون آفاقا بعيدة.

إنهم يريدون النهوض بالإسلام من تخلفه الذي طال كثيرا بالعمل على توحيد الاتجاه الديني والمهدي أسس الذي يتشبث به أصحاب "العمائم القديمة" مع الاتجاهات المعاصرة للأجيال الإسلامية على قواعد مستعارة الحضارة العربية، أو على شاكلة الشباب المصري الذي يهتف "مصر للمصريين" فقد وصل شبابنا نقطة التساؤل "ألا يجوز للجزائريين التساؤل حول إمكانيتهم شغل مساحة أوسع في دوائر الحكم وتسيير الأمور على الأقل في غياب المطالبة بجزائر للجزائريين"

مجمل قول السيد سيرفيي هو أن هذه الطبقة مشبعة بالغرور والكبرياء وأنها تحلم بلعب دور في شؤون الحكم، وترتكز على الأممية الإسلامية مستلهمة من جمعية ايجد وتقدم أفكارها وآرائها، وتحلم برمي الفرنسيين في البحر.

هذه الأفكار التي يعرضها إعلامي بقدر الجزائريون إرادته كانت ستكون مرحبا بها لا ريب لولا ما تفصحه من شعور عدائي صوب هذه النخبة. وسنعمل فيما يلي على مناقشة بعض النقاط الواردة في المقتطف لنسبق بهدوء وتعقل وإن كانت بلاغتنا لا تبلغ بلاغة الإعلامي محليل في كل حين

أول ما نتساءل حوله هو سبب وصف هذه النخبة بالكبرياء وغرور إلا إذا أدرجت ضمنهم هذا الجيش من "الشاوش" والكتاب العموميين وبائعي الصيدليات الذين يمضون في نهاية يوم عمل شاق، العصا في اليد والشاشية على الرأس للاقتعاد في أحد المقاهي المغربية التي يتجمعون فيها لتبادل الانطباعات والتعليق على أحداث اليوم. ذلك أنه لا يجب أن نعني بتسمية "شباب الجزائر" سوى أقلية محدودة تلقت تربية جادة هي تلك التي تنتمي إلى سلك الأطباء أو القضاء أو التعليم أو التشريع الإسلامي.

من بين هؤلاء هل بإمكاننا ذكر بعضهم ممن بلغوا "أعلى درجات الحضارة"؟

هل بإمكاننا إقامة الحجة على كونهم تملؤهم الكبرياء؟ علام نرتكز لأحكام السابقة؟ هل لو نسب ذلك أن بعضا منهم يقود سيارات بدلا من السير على القدمين مثل البورجوازيين

لقد أدى شعورهم بتفوقهم العقلي، فهل في الأمر ذنب؟ لا طبعا بل إنه شعور ضروري أحيانا للوعي بالذات، إننا نرى من يعي ذاته بهذا الشكل ملتزما بكرامته الشخصية وشديد الارتباط بواجبات طبقته الجديدة.

"الأحلام المجنونة" لا تجد أرضية لها إلا في الدماغ الناقص للطالب نصف المتعلم الذي يصقله جو الروايات الخاص بالخرافات القديمة التي تتكرر باستمرار والقصائد الحماسية التي تعج بها تلك الأمكنة وهي أحلام لا تستطيع سكنى الذهن الإيجابي لشاب رأى بأم عينيه على خرائط أستاذ التاريخ والجغرافيا القوة السياسية والعسكرية لفرنسا الواقع سيتغلب بسرعة على ما تلده لحظات الغبط من أفكار خبيثة في ذهن الشباب الجزائري

إذا كانوا غير لطيفين مع جيرانهم -وهذه ملاحظة خطيرة، خاصة وهي تصدر بخط عريض على الصفحات الجادة لجريدة مثل لاديباش دي كونسطانتين- فاللوم لا يقع على النخبة ولا على غرورها المزعوم بل يقع على الفروق الاقتصادية فحسب

الشبان الجزائريون بصدد التحول إلى أنداد حديين ذلك أن هنالك تحت كل سوء فهم قضية مادية ما- وهذا أمر لا يحتاج إلى شرح كبير.

هذه النخبة تحلم بـ لعب دور في تسيير الأمور وشؤون
أحكم. أليس هذا الأمر طبيعيا بالنسبة لإنسان يريد استغلال
تكوينه الجيد ثم لماذا تكون أبناءنا إذا كنا سنحرمهم من مهمة
تحمل النبل إلى كرم النفس.

إذ كان بعض الشباب الجزائري المتجنس والحامل للشهادات
الجامعية يصرخ غاضبا سخطه نتيجة لحرمانه من بعض الوظائف،
أليسوا على حق ثم أليسوا أصحاب أولوية بالنسبة للمهاجرين الذين
تعج بهم الجزائر ممن يشغلون هذه الوظائف ؟

ما فائدة علمهم إذا كانوا مهمشين وسط الأمة الفرنسية التي
شبوا ولتي يرونها تفضل عليهم المهاجرين ؟

لو كانت هذه التفرقة تشمل فقط أبناء الأهالي ممن حرسوا
وارتقوا أدراج العلم ثم حرموا تلك الوظائف المربحة لهان الأمر، أما
أن يحرم منها أولئك الذين قبلوا التجنس بجنسية فرنسية بسبب
مولدهم -وهو سبب لا يجهر به أبدا- فهذا أمرا لا من السياسة
ولا من الكرم

إن التجنس الذي أقدمت عليه كل هذه النخبة عمل شجاع
لأنه يوجه اشكالية دينية هؤلاء بجعل الشأن الديني مسألة فردية

وما يواجهونه مما نحن بصدده يثبط المتجنسين كثيرا بعد أن
يتخطوا صنوف من العوائق على رأسها عائلاتهم التي تتنكر لهم

لأجل ما سبق علينا تيسير أمورهم وتشجيع مبادراتهم
الشجاعة ووقوفهم ضد تيارات قوية، وأخص بالذكر أولئك الذين
نصفهم بأبناء العائلات الكبيرة

من منا يستطيع وصف الصراع الداخلي الذي تشهده روح
البعض منهم ؟ من يمكنه القلق والتردد الذي ملأ نفس أعلهم قبل
أن يتحدوا القرار الذي سيحدد مصيرهم ويغير وجهة قدرتهم نهائيا
ويبعدهم عن عائلاتهم الجزائرية المسلمة إلى غير ما رجوع. وأحدد
صفة "الجزائرية" لأنها التهمة التي يتعرض لها المتجنسون بدءا من
التسمية التي يلصقونها بهم "لمتورني".

ستجدون بلا عسر مفتيين يقرون بأن التجنس خروج عن
الدين، رغم أن هذا خطأ مستعدون للبرهنة عليه ذات يوم. ونحن
تلامذة أحد أفضل المفتين على الإطلاق بل إننا نقر بأن هذا الأمر لو
كان صحيحا منذ مائة عام فإنه ليس صحيحا اليوم

إن هؤلاء الذين يرونه وعن وعي، يأتون ليرتموا بين أحضان
فرنسا هم أهل لتشجيع الإدارة الفرنسية من جهة، وأهل لإكبار
الجميع، من جهة أخرى، فبعد انتقاد جميع أبناء دينهم. وبعد

صنوف للوم من عوائلهم، بحيث لا يلقوا الصد من قبل الادارة، او
المخوف من قبل إخوتهم الجدد ليصيروا "على هامش الصفتين
كلتيهما" لأن هذا السلوك قد دفع سابقين إلى الندم الشديد على
ما اقدموا عليه وسيدفع اللاحقين الى عدم الإقدام استفادة من
تجارب السابقين.

هذا الشعور هو نفسه الذي وضع عليه اليد محرر لوتون Le temps السيد فيليب ميي، في مقال رائع وسطرة قليلة نظيرتها في العمق والتبصر "لا توجد وضعية أكثر تأثيرا من وضعية هؤلاء الرجال الواقفين على الحد الفاصل بين عالمين".

لا يبت مدرسا قبائلي الأصول تجنس بالجنسية الفرنسية وتزوج بفرنسية النموذج نادر، ولهذه الندرة سبب وجيه "لم أجرؤ على العودة الى بلدتي، لم يرحبوا بي أبدا، فقد مات أبي دون العفو عني."[1] لم يعبر الاستاذ عن أسمه، ولا يسمح له عقله ومنطقه أن يندم على ما فعله. إلا أن شعورا دفينا بالألم سببه العزلة كان هنا يدفعه إلى الرغبة في مغادرة الجزائر وإننا نعي جيدا أن كثيرا من الناس يحسون أنفسهم هذا الشعور وهذا الموقف البطولي.

1- يبدو لي هذا الاعتراف مبالغ فيه

"سيطالب أبنائي إن كانوا، بالجنسية الفرنسية -قال لي أحد الاهالي من أبناء رفيعة حد،- أما أنا فلا أستطيع الاقدام على ذلك، سيقتل أبي بفعلتي تلك وهذا الموقف شبيه عندي بأولئك الاوروبيين الأحرار الذين يعمدون أبناءهم لا شيء سوى لتجنب النقاش والألم لأناس قريبين من قلوبهم."[1]

ثم إنه لا مجال للتقول حول برنامج الشباب الجزائري فقد تم تعديله مرارا وآخر تعديل له قد تم مؤخرا فقط. فقد قدم الدكتور المحترم بن تامي، في باريس رفقة بعض الزملاء مذكرة تحمل رؤيتهم وتحوي مجموعة من المطالب التي تسمح لنا بفهم فكرهم وتقييمه.

إن المطلع على المذكرة سيكون بلا شك على بينة من مستواهم وسيجد قبالته نقطتين حاسمتين توضحان سلوك هذا الشاب الجزائري:

الأولى هي الارتباط الوثيق لهؤلاء الشباب المسلمين الجزائريين بفرنسا، ويمكن للإدارة الفرنسية أن تطمئن على سيرورة الأمور بعد طول قلق مبرر بلا شك.

1- *Revue de Paris*, Novembre 1913

والنقطة الثانية هي عدم اهتمام مهم بالدعوة التي طالما حاولت الفرنسيين ان عبيش في المحافظة على علية العنصر الفرنسي في الجزائر والتي معاندة حصول الأهالي على حقوق المواطن الفرنسي حقوق لا يطالب بها هؤلاء اصلا حتى لفائدة النخبة

وقد يمنعنا في هذا المقام نشر هذه المذكرة عن كل إضافة

مذكــرة

حول التدابير التي يطالب بها المسلمون الفرنسيون في الجزائر كتعويض عن التجنيد العسكري

إن الظروف التي تم فيها التجنيد العسكري بتاريخ 13 فيفري 1912- قد ولدت شعورا بالاستياء لدى كل الجزائريين، وهو شعور من شأنه أن يتطور إلى ما هو أخطر إن لم يتم توضيح الأمور جليا.

إزاء هذا الوضع، رأى الأعيان المصون أسمله، والذين هم ممثلون الأفاضل لجماهير من الأهالي، أن يتوجهوا إلى حكومة العصمة لتوضيح الوضع المتمثل في شعور الأهالي بأن هذا الحمل الذي جاء يعضد أحمالا ثقيلة سابقة، لا بد أن يوازيه شيء من التخفيف عن كاهلهم

هؤلاء الممثلون، والذين استوحوا آرائهم من الطلبات الكتابية الكثيرة الصادرة من المقاطعات الثلاثة للجزائر، والمقتنعون بأنه على أبناء فرنسا أن يجيبوا ندائها دائما، هؤلاء السادة يعلنون أن أهالي الجزائر مستعدون تمام الاستعداد لأداء كل واجباتهم إزاء الوطن الأم

إلا أنهم يرون ضرورة ما يلي

أ- تقليص مدة الخدمة الوطنية إلى سنتين مثلما هي حال المجندين الفرنسيين.

ب- الاستدعاء في سن 231 بدلا من 18 سنة لعدم استعداد الشباب النفسي في تلك السن

ج- إلغاء المنحة لأن العائلات ستكون محرومة بأبنائها وهم يخدمون في صفوف الجيش الفرنسي دون تعويض مالي

ويطالبون -بالموازاة- بالتعويضات الفعلية التالية .

1- إصلاح نظام العقوبات

2- تمثيل حاد وكاف في المجالس هنا في الجزائر وكذلك في العاصمة

3- المساواة في نظام الجباية والضرائب.

4- التوزيع العادل للموارد بين مختلف عناصر الشعب الجزائري

أولا: نظام العقوبات

الأهالي يخضعون في حالات الجنح والجنايات لقانون استثنائي يبتعد كثيرا عن القانون العام، من ذلك أن وضعية "الأهلية" تستحدث قوانين خاصة وعقوبات خاصة لا يتم تطبيقها في المحاكم بل من قبل أعوان الإدارة فقط، وهذا خرق صريح لمبدأ التفريق بين السلطات.

من جهة أخرى يتم الاحتكام لمجالس الردع -كما تسمى- التي لا تحترم أية قاعدة من الإجراءات القانونية المعروفة

لنذكر بأن هذه القوانين لا تعود إلى مرحلة الاحتلال وإنما تعود إلى تواريخ قريبة هي 1881 ثم 1903.

أحد أغرب الأشياء هو ما يسمى الحبس الإداري، وهو حبس لا يخضع لأي نص ولا يرتكز على أية قاعدة قانونية رغم تطبيقه الشائع جدا ، إذ يكفي أمر من الحاكم لكي يجتث الشخص من وسط عائلته وأعماله ليحبس دون شرح ولا دفاع ولا تفسير، فيوضع في حبس خاص لمدة غير محددة، وربما يتم ترحيله إلى مكان بعيد جدا عن بيته عمله وإخضاعه لإقامة جبرية

إن أهالي الجزائر يطالبون بتغيير جذري لهذا الوضع

ثانيا : تمثيل الأهالي

هدف هيكل في الجزائر يفترض للأهالي ان يكونوا ممثلين في مجلسه، يمكن في المجالس البلدية مثلا أن يكون لهم ربع مقعد دون ان يتجاوز الحد الأقصى ستة مقاعد

في المجالس العامة عدد المقاعد لا يتغير ابدا ستة مقاعد

في المندوبيات المالية، بل يكون العدد الاجمالي 69 عضوا يشمل الأهالي 21 مقعدا 15 منتخبين، و6 يعينهم الحاكم العام من العساكر

في المجلس العام وأعضاؤه 59 عضوا، يوجد 7 أهالي، 4 من مندوبيات المالية و3 يعينهم الحاكم العام من العساكر

وصح جدا أنه لا تمثيل جاد أو مجد للأهالي في المجالس المحلية، عددهم المحدود يجعلهم في كل مكان دون فائدة وعاجزين عن لعب دور التمثيل الحقيقي

ثم إنهم لا ينتخبون لا شيخ بلدية ولا نائب له، ولا يلعبون في النهاية أي دور في التوجيه الإداري للبلدية.

أما تعيينهم فيخضع لهيئة محدودة جدا تمنع كل هامش للحرية، إن الهيئة الانتخابية تحوي:

1 - بالنسبة للمجالس المحلية : الموظفين، المتقاعدين، الملاك، المزارعين، حاملي الوسام الشرفي، أو الميدالية التذكارية ويستبعد التجار، الصناع والذين يشغلون المهن الحرة: المحامون، الأطباء وأرباب التجارة ليسوا ناخبين.

2- بالنسبة للمجالس العامة لا تشكل لهيئة من المنتمين الى المجالس المحلية من الأهالي والأعوان الأهالي، وبسبب تعيينهم للإدارة "الولاية" وبسبب كونهم يشكلون لأغلبية دائمة، فإن المنتخب هو دائما منتخب الإدارة، وهذا ما يجعل تمثيلهم صوريا لا معنى له، فهم لا يمثلون إلا الإدارة التي يشتغلون تحت إمرتها، تلك هي حال تمثيل الأهالي.

لهذا فالأهالي يطالبون بما يلي :

1- توسيع الهيئة الانتخابية لضمان تمثيل فعلي ونزيه أثناء الانتخاب.

2- رفع عدد الممثلين الأهالي في كل المجالس إلى خمسي المقاعد على الأقل.

3- توحيد تشكيل الهيئة الانتخابية بالشكل نفسه في الجزائر كلها، فإذا تم اللجوء إلى دوره انتخابية ثانية لتعيين أعضاء

المجالس العامة والمندوبين الماليين، يجب ألا يكون الحق في الانتخاب ممنوحا سوى للمنتخبين المحليين باستثناء الأعوان الأهالي.

4- أن يحق للمنتخبين المحليين أن يشاركوا في انتخاب شيخ البلدية ونوابه

5- إبعاد إمكانية الانتخاب عن وظائف مثل "القايد" والعون الأهلي

6- تمثيل الأهالي في البرلمان الفرنسي، أو استحداث هيئة عليا في باريس يتم تمثيل مسلمي الجزائر فيها من قبل منتخبين يتم انتخابهم من قبل الأهالي أنفسهم

7- أن يسمح لمن أدى الخدمة الوطنية أن يحصل على درجة موطن فرنسي بطلب بسيط ودون إخضاعه للشكليات المعقدة المنتشرة حاليا

ثالثا : توزيع الضرائب

لا بد من تصحيح المنظومة كليا مع الارتكاز على مبدأ المساواة في توزيع الأعباء

رابعا : توزيع الموارد المالية

ان المستعمرة الفرنسية هي الوحيدة المسئولية على الموارد المالية بفضل التمثيل الحقيقي الذي تحظى به وفي حين يتمتع العنصر الأوروبي بخيرات هذه الأرض، تجد الحاجات الأكثر إلحاحا للأهالي عسرا كبيرا لكي تُقضى.

ونرى جليا كيف أنه يتم تبديد كيف أنه يتم تبديد أموال كبيرة، في بلديات كثيرة على أمور ومشاريع لا فائدة ترجى منها، في حين لا يحظى الجزائري سوى بالأعمال الشاقة.

إنه لوضع مغيظ إذا ما فكرنا جيدا فرأينا أن أغلب الموارد مصدرها الضرائب التي يدفعها الأهالي، ولهذا نضع أمل كبير على خلق تمثيل حقيقي للأهالي في أجهزة الدولة للعمل على تصحيح الوضعيات.

هذه المطالب التي يقدمها ممثلوا الأهالي وكلهم ثقة في عدالة الحكومة والجمهورية والتي تعلم أنها لن تدخر جهدا لخدمة الصالح العام، الفرنسي والجزائري معا.

تلك هي الإصلاحات التي تنادي بها هذه النخبة، إننا لا نوافق كل ما ورد فيها، وبما أن جل من شارك في تحريرها من

الصحفيين فإن سيدي بهم آراءها في الوقت المناسب على الصحيفة المناسبة

ولكن، وبعد معاينة هذه النقاط الواحدة تلو الأخرى. هل يصبح فعلا نزعة إسلامية ما؟ سواء جهرا أو سرا؟

هل يوصف بالإسلامي من يقبل بحمل السلاح في الصفوف الفرنسية؟ إنه تصور غريب للإسلامية

الأدهى والأمر من كل شيء هو أن هذه التهم السطحية الجائرة قد ولدت ردود فعل ومواقف مؤسمة. وأوجدت جوا مكفهرا نخشى كثيرا ما يمكن أن يترتب عنه

هذه النخبة المتحركة، والتي توصف بالنزعة الإسلامية والوطنية هي في معظمها شباب نال تكوينا عاليا في المدارس الفرنسية وبعضهم لا صلة له إلا بالفرنسيين أصلا، كثيرون يعيشون على الطريقة الفرنسية، وليسوا قليلين من تزوجوا أصلا فرنسيات والأغلبية الساحقة منهم قد قلصوا ممارستهم للدين إلى الحد الأدنى الذي هو النطق بالأمر، أن يجوز مع ذلك وصفهم بالتطرف الإسلامي؟

قليل من المنطق أرجوكم.

أعتقد أن هنالك نزعة من قبل بعض الكتاب أصحاب الخيال الخصب هدفها تكرار رسم صورة مارد "الإسلامية" إلى حد إيهام المتسرعين بوجوده حقا.

إنه لمن الغريب أن هذا المصطلح لم يكن معروفا أصلا في الجزائر منذ ثلاثين سنة -حسبما نقله الشهود- في حين نجده اليوم منتشرا تتندر به الأفواه الأكثر سذاجة أن يشتد أحد الطلبة الثانويين في اللجاجة على صاحبه حتى يرميه هذا الأخير بكل سخرية قائلا: "جذع شجرة صار إسلاميا".

أتعني بالإسلامية ذلك الشعور بالملاطفة الذي يملأ صدر بدوي سطيف إزاء أخيه المسلم بالمدينة المنورة؟

إذا كان الجواب نعم، فإننا لا نرى في ذلك غرابة، وأي شيء أكثر منطقية من شعورنا بالقرب ممن يشاركنا العقيدة والأحلام والمخاوف والتاريخ والطقوس والأخلاق، خاصة إذا كان هذا الشخص بعيدا لا يتعارض وجوده مع وجودنا في أي شيء

أليست هذه الحال هي نفسها لدى جميع اليهود وجميع المسيحيين؟

أما مسألة القرب بين الشباب الجزائري وبين جمعية اتحاد وتقدم الإسطنبولية فلا دليل عليها.

إن التبرعات التي قام بها الصليب الأحمر لفائدة جرحى الحرب الإيطالية التركية في طرابلس هي مبادرة من مجموعة من رجال الدين القسطنطينيين، من بينهم إثنان يحملان وسام الشرف، وليست مبادرة الشباب الجزائري. فإذا كانوا قد اضطلعوا بالأمر فيما بعد فما ذلك إلا للتقرب من المبادرين الذين أرادوا خدمة عملهم الخيري مستعينين بالصحافة الأهلية

ما يأسف له هو أن الجرحى الإيطاليين لم يستفيدوا من هذه المنح المالية والا لكان ذلك درسا رائعا في السماحة والتسامح، حتى وإن كانت ستواجههم رياح التعصب لدى الجموع، إلا انهم كانوا سينالون شرف المبادرة [1]

إن "العمائم القديمة" نفسها تحظى لدى الصحافة الأوروبية المغرضة بكثير من الانتقاد "إنهم -كما يقول السيد سيرفيي- أناس شديدو الارتباط بالدين الإسلامي [1] وخاضعون للتعاليم المهدية [2] " ثم يعلمنا، بعد ذلك بصفحات بأن "الإسلام محافظ شرس، وأنه كان التعصب داء عضالا فإن التعصب الإسلامي

1- A. Servier Nationalisme musulman, p.32
2 ID p 190

تحديدا لا أمل يرجى منه، وأن الإسلام غير متلائم مع الحضارة لأنه جوهريا ضد كل أشكال التقدم" [1]

ما المقصود إذن ؟ أن "العمائم القديمة" لا يفعلون سوى خداع فرنسا بإظهار مظهر مسالم، وأنهم لا يفعلون سوى ممارسة "التقية" [2] بإظهار الرضا وإبطان السخط لعجزهم عن الحركة، وأن هدنتهم مؤقتة فحسب وأنهم يتربصون بالمسيحية في انتظار ظهور نزعة أممية إسلامية ما.

إننا نعارض هذا الكلام معارضة جذرية، إضافة الى كونه كلاما قديما بعض الشيء لأن السيد سيرفيي نفسه، ومنذ أسبوع فقط، نشر على صفحات تعابير المدح وأكثرها بلاغة، تلك البلاغة التي يملك ناصيتها إلى درجة تحييد في كل مرة

إلا أن هذه البلاغة تعجز كثيرا في تفسير الهوة الكائنة بين ما كان يقوله في حق الشيوخ منذ عام ونيف وبين ما يقوله اليوم

"إن برنامجهم يتلخص فيما يلي :

1- الوفاء للدين الإسلامي.

2- الوفاء لفرنسا.

- ID pp 92 -93
- ID p 13

1- حب التقدم

انه نفسه السيد سيرفيي الذي يرى المسلمين عاجزين عن كل
تعامل مع مسيحيين ويرى الإسلام غير متلائم مع التقدم، وهو رأي
خاطئ وعلى الأقل مغر للجدل المثير للسخرية هو أن الرجال الذين
يمدحهم اليوم ويصادق على برنامجهم هم قلة أكثر شيء يميزها
تدينها الشديد، فالعشرة الافتتاحية لبرنامجهم الجديد جاءت بشكل
احترام وتقدير هي أنهم يريدون ويودون احترام الشريعة الإسلامية

الاستنتاج الذي يفرض نفسه هو أنهم لا يمكنهم بأي شكل
من الأشكال أن يكونوا أصدقاء التقدم ولا أصدقاء لفرنسا

هذا ما يجره كلام السيد سيرفيي. حلل وناقش

لن نطيل كثيرا مع موضوع "الإسلامية" الذي لا جدوى منه
هنا وسنختم بكلمة نصيحة قالها أحد المتأدبين المسلمين (المستشار
السابق لمنطقة تلمسان) في وجه متحرٍّ جاء للبحث والتفتيش في
الشأن الأهلي

"لا نزعة إسلامية ولا وطنية في الجزائر، قال السيد بن رحال،
فإن كان موجودا فلا بد أن سيادتكم هي التي اخترعته"، ونضيف
أنه على الصفة الأحرى مثلما يقال، أي صفة "العمائم المحوز"، الذين

هم أناسا مسالمون وعمليون[1]. سيجمع هذا الجيش الرهيب قيادته
لأنه لا يجب أن ننسى بأن الانتظار الهادئ لا يعني الاستكانة.

من المناسب، لختام هذا النقاش، أن نبين ثانية المشاعر
الحقيقية لمسلمي الجزائر إزاء فرنسا. وهو ما تعكسه بلغة رائعة
رسالة السيد مختار حاج سعيد أحد الشباب الجزائريين اللامعين
هي ذي الرسالة:

السيد رئيس تحرير لا ديباش دي كونسطانتين

إن من تسمونهم في ورقتكم بتاريخ 20 جانفي "العمائم
الشابة" و "الأتراك الشباب" أناس لا علم لنا بهم أما نحن فإننا
ببساطة شباب فرنسي مسلم ولا نريد غير ذلك. لهذا فلا حاجة لنا
للإعلان بأن عدو وطننا هو عدونا اللدود مهما كانت جنسيته
وديانته وأعتقد في هذا السياق أن حملة المغرب الأخيرة كانت
فصيحة في هذا الشأن إذ كان السيد باش حمبه يقود في تركيا
حملة ضد فرنسا وهو أمر دون يقين. لأن قبول منصب في القضاء
الشرعي لا يعني بالضرورة الخيانة أو النوايا العدوانية إزاء بلادنا.
فإن نبق الأمر فإننا لن نتوانى لا عن التنكر له فحسب فهو لا شيء
في حسباننا بل عن عدّه عدوا لنا.

---

1. Servier Natinalisme musulman. phrase déjà citée

بالنسبة لي شخصيا أي السيد باش حمبه صديقا ومعجبا لفرنسا إعجابا شديدا، قد يكون قد تغير، والتعبير من ديدن النسبة إلا بني هو رأي السيد باش حمبه الذي أعرفه شخصيا بين منافقا ولا مرائيا بل إن خطيئته الوحيدة هي صراحته الكبرى

ثم إنه لا يجب نسيان أن السيد باش حمبه ليس مواطنا فرنسيا مثلنا بل تونسي أصوله تركية، إنه إذن أجنبي تحت حماية فرنسية

ومهما كان فإننا نكرر بأنه إن عادى بلادنا عاديناه أشد عداء فبلادنا وحدها ما لنا غيرها، أما إسطنبول والخليفة بالنسبة لنا نحن المسلمين فهما مثل روما والبابا بالنسبة للمسيحيين، لا غير.

ومحصل القول أنه فيما عدا شيء من الملاطفة مصدرها الديانة المشتركة فإنه لا يجمعنا شيء مع الأتراك والفرس والمصريين. أما بالنسبة لادعاءات القرابة مع جماعة "اتحاد وتقدم" وادعاءات النزعة الإسلامية فإننا نعلن ونقر بأنها لا توجد إلا في مخيلة بعض خصوم السياسيين وأحسن ما نجيب به هذه الادعاءات هو التساؤل حول الفائدة المرجوة من قرابة ممكنة بين إسطنبول والشباب الجزائري

لقد كان لنا سلوك نبيل منذ سنتين حينما اضطلعنا بالتبرعات لفائدة جرحى حرب طرابلس ولسنا نادمين، بل فخورين لأنه قد تم تنظيم نفس الأمر في فرنسا قبل أن نفعل ثم إن الأمر قد تم بموافقة من السلطات فلا نقاش حول هذا الموضوع بعد هذا.

هذه سيدي بعض الشروح الواضحة القاطعة.

إن هذا الرد لا يحمل إلا امضاءً واحدا هو امضائي إلا أنه يعكس بالتأكيد فكر وجد أن كل الأصدقاء الذين يضعون الطربوش أو القبعة أو العمة دون تمييز فكل واحد حرّ في اختيار غطاء لرأسه ونضيف كلمة إن سمحتم أنكم إذ تكتبون أننا نطالب للمسلمين بالحقوق التي يقر بها الدستور لكل مواطن فرنسي تخطئون، ربما دون قصد إلا أنكم تخطئون كثيرا لأننا لم ولن نفعل والباب لمن يريد أن يحلم بذلك.

ما طالبنا به هو مجموعة من الاصطلاحات هدفها تحسين وضعنا الاجتماعي. إن آمالنا ومطالبنا شرعية في عيون الجميع والدليل أن السيد الحاكم العام قد أصدر أمرا ثم مرسوما مؤخرا، ينتصر لما رأيناه.

اقرؤوا سيدي أو أعيدوا قراءة الورقة التي سلمت في جوان 1912 لرئيس الحكومة من قبل الوفد المسلم إلى باريس وسيتضح

كل منهم حول نواياه أملي كبير في سعة صدركم كي تنشروا
ردي، إني سيدي خصم سياسي لأنني أعارض آراءكم لأنني أرى
حملتكم في لا ديباش دي كونسطانتين ظالمة وباعثة على الحقد
والتفرقة بين الأوروبيين والأهالي، العنصرين الذين لهما كل ما
يجمعهم ويؤهلهم للعيش في سلام والعمل يدا في يد لأجل خير
البلاد وعظمة الوطن إلا أنني أعدكم دوما خصما أمينا وإعلاميا
موهوبا

فإن حدث وحركتنا التقلبات السياسية صوب أرضية للتصالح
والاتفاق سيكون أول من يمد صوبكم يدا أخوية.

تحياتي واحتراماتي كلها

مختار حاج سعيد

محامي

إن الشباب الجزائري مثله مثل اخوانه الكبار فرنسيون
طيبون فاذا تحرك هؤلاء ولبث اولئك صامتين، فلا يجب قراءة
الامر على انه معارضة وتضاد، فكلهم قدموا لفرنسا علامات
الولاء، ومتى ما حلى بينهم سوء الفهم وعلو السر، لا بد من فهم
ذلك كعلامة على مجيء زمن جديد، فالنقاش الوسيلة المثلى
للتقريب بين الطرفين الذين تظهر الفرقة بينهما.

إن رجلين يتناقشان هما رجلان في الطريق صوب التفاهم،
لهذا نأمل ان يدخل كل العناصر الجزائريين في النقاش للبث في
الامور والجدالات العالقة، وتبيان مواقع الخلاف، ومواصلة المهمة
التي بدئ في تحقيقها تحت الألوان الثلاثة للعلم

ستصير مهمة كل شخص أخف وأيسر وتكون ثمار العمل
الجماعي افضل انذاك وهذه هي الأفكار التي نتمنى أن يعرضها
ويدعو لها اعلاميون من قبيل السيد سيرفيي، آنذاك تكون إراء
فتح السبل "دوبان ليس فقط ممكنا بل إنه ضروري"[1]

من أجل هذا، لا بد على الشباب الجزائري أن يعمل بحذر
وهدوء، فإذا كنا نقر بوفائهم فإننا نرفض العنف الكبير الذي
يطبع جل كتاباتهم، وحتى إذ صح أن المحررين الأصليين لهذه

---

[1] Bourdarie La question indigène

لكتابات هم فرنسيون من المعارضة يحمون أسماءهم فإن ذلك بلا أهمية في ظل نشر هذه الأوراق على صفحات جرائدهم نضيف إلى ذلك لجوءها لشخصية الكثيرة التي تتخذ لها من هذه الصحف مسرحا، وهو أمر يشير ما رأته نيل قضيتهم

من جهة ثالثة، يلاحظ نشر هذه الصحف للأخبار والتفاصيل المثيرة والمضخمة بعيدا عن روح التحري والصدق، ودون تقدير عواقب لذلك فإن الحاجة ماسة لجهاز رقابة قوي يمنع عنها ما صار لصيقا بها من خفة والسباب الساقط.

أسوق مثلا فصيحا حول ما أتحدث عنه يتمثل في كوني منذ أشهر في قاعة الانتظار المكتظة لدى طبيب معالج، وكان من بين الحضور شاب من الشباب الجزائري وعلى صفحة إحدى الأوراق الموضوعة على الطاولة وبخط اليد قرأت: "عين مفقودة أخرى!".

تذكرت حالا واقعة مفادها أن أحدهم مسيري البلديات المختلطة قد فقأ عين أحد أعوانه بضربة سوط منذ أشهر كما نقلت جريدة لوطون Le temps وكان هرج كبير قد ثار، واتسع الجدل بعدما أدرك الأمر محام جزائري ولم تتضح فحوى الحادثة إلى اليوم، لا من قبل الاتهام ولا الدفاع.

نسيت آنذاك الألم الذي جرني إلى ذلك المكان واستدرجني الفضول إلى طلب تفاصيل أكثر من الجالس إلى جانبي لدي توقعت أنه ليس مستبعدا أن يكون كاتب تلك الكلمات، ولم يخب توقعي، قال:

"الأمر وما فيه أن أحد الأهالي، في أوائل هذا الصباح، تلقى ضربة من ذراع بندقية على أم وجهه، ويبدو أن الفاعل هو أحد المعمرين وواصل بكل حماس "إنني محرر في الجريدة، كما تعلم، وقد جئت إلى هنا للفحص، كما تعلم، إلا أنني لاقيت بالصدفة الرجل المضروب وهو في حال مزرية، وسيتم حالا إدخاله إلى الاستعجالات، لهذا جاءتني حالا فكرة كتابة مقالة حول الحادثة وبما أن الجريدة لن تصدر إلا غدا فإنني أنتظر خروج الجريح لأحصل على تفاصيل أوسع.

– ضرب دون سبب؟

– دون أدنى سبب!"

صعقني ذلك الكلام فتركت القاعة وداهمت الطبيب لطلب الإذن بالحديث إلى الضحية المزعومة، كان الرجل عميق الجروح وكانت عينه اليسرى في حالة خطرة جدا وأجوبته حيّرتني بأنه من منطقة جيجل، واتبعت معه طريقة مألوفة هي الهجوم مع لبس

تحري بالحقيقة وسأصدقك. إنني لا أصدق بأنه تم

لاعد ، دون مبرر منطقي: انا أعرفك وأعرف أصولك" وما ان

عرف هويتي ومكنني حتى قبّل يدي واعترف بجرمه وتوسل إلي

كي لا اخبر احدا

لواقع انه هو في طريقه الى عمله دفعه الجوع أو لست أدري اي

شعور شبيه الى مد يده إلى ثمار الخوخ ببستان رآه وكان مجبرا

للوصول إليه ان يطأ ارض البستان المجاور، وما كان من الحارس

متيقظا الا ان عاقب اللص المتسرب فكان عقابه أشد مما يطاق

إنني لا اوافق ما فعله الحارس لأجنبي، وكل ظني أن العقاب

لم يكن من جنس العمل، إلا أن الحقيقة هي ما عليه، والواقع ان

هذه الحطيئة التي يبدو أن طرفيها هما ما رأينا قد صار لديها

طرف ثالث كاد يجر العدالة صوب منزلق ما : إنه الصحفي

والجريدة التي يباشر عمله بها

النقطة الأخيرة التي لا بد من الوقوف عندها هي لجوء

صحافة الشباب الجزائري الكثيف للإمضاءات المجهولة،

واخلاقيات المهنة توجب عليهم التعود على التحلي بالشجاعة لمواجهة

وتحمل تبعات آرائهم وإلا فالصمت.

ثم إنه على هذه الصحافة أن تقلل من التعامل على الإدارة

التي يؤكد أن جل خدامها تحركهم أحسن النوايا في عملهم وفي

تعاملهم مع الأهالي.

أن يطالب الشباب الجزائري بتمثيل فعلي وواسع في المجالس

وفي صلب الهيئات المنتخبة من أجل إيصال صوتهم، ذلك أمر لا

ينكره عليهم أحد، بل إن الإدارة نفسها في أتم الاستماع لهذا

الصوت الذي يقول الحق، وأنا موقن بأن إصلاحات قريبة ستظهر

إلى الوجود في أقرب وقت.

أن يجتهدوا لأخذ مكان مسؤولين كبار في السن، أصبحوا

عاجزين عن القيام بدورهم بالحيوية الكافية، أو مكان "غير

المؤهلين". ذلك أيضا أمر مقبول لا غبار عليه. بل أكثر من ذلك

إنها سنّة الحياة التي لا اعتراض عليها.

أما أن يوجه النقد المتهجم اللاذع لكل المسؤولين وكل

الموظفين وممثلي الأهالي، وكل الأعيان المسلمين الذين عملوا بجد

على الإصلاح والمصالحة بين الأطراف المتنائية، ووصفهم

بالطامعين الجشعين المقتاتين من موائد الأسياد ومصاصي دماء

البسطاء والعائشين في المياه العكرة ... ذلك هو ما لا نقبله بتاتا ولا

1- مجلة "إسلام"، بتاريخ 18 نوفمبر 1930.

احد سيستفيد هذه الصحافة من اجل شتم أولئك الذين لم يفعلوا شيئ بيساهمون السباب لاجله

صدقوني أيها الشباب الجزائريون، أنكم ستربحون أكثر وستفوزون القص لو عوضتم الشكوى والصراخ والأنين بالعمل على نزع لصدق من التهمة التي ألصقت بكم والتي ترى فيكم النقص، الغرور، لكبرياء والادعاء

خلاصة

ها نحن قد عاينا المهام التي قامت بها الإدارة الفرنسية لتفريق بين عنصري هذا البلد واحد، وحدة قرابة ما يعانيه الفلاح البسيط في وضعه الذاتي، كما ألقينا ضوءً كاشفا على أعوان نفوس بورجوازيينا، وكشف أمل ورغبة في تبديد ضباب الظنون والأحكام المسبقة والأنظار الحاضرة، وتهيئنا بالنظر الموضوعي التحليلي المقيم والمقوم صوب هذا الجيل الصاعد المسمى: النخبة.

لا بد أن كثيرا من الخلط والتهافت قد تسرب الى هذه الصفحات إلا أننا نصر على ما هو أهم إليه الحسنة والقصد الصريح اللذان يقفان خلف هذه الآراء.

لقد ناقشنا و أبدينا الرأي في الأمور دون أي يغار من به جهة ولا معرف لنا في مشروعنا كله سوى العدد الذي يصنع النقص والذي دفعت الى صافة معروفة لي لكونسرتو لجزائري

إن مختلف الآراء الصادرة عن مختلف الشرائح المعنية بالمشاكل بشمال إفريقيا مهما بدت وجهة كبيرة، لهذا حرصنا على عرضها كلها على تباين أصحابها بين شهير ومغمور، قبل إبداء رأينا، ولنذكر دائما أن المشاكل المذكورة واسعة المدى شائكة وشديدة الحساسية

تطور أعمال المساندة والتعاونيات إصلاح نظام "الخماسة"، والنظام الحبسي أو نظام العقوبات، التعليم، القيادة، تيسير أحوال المرأة خاصة، كلها من المشاكل الواجب ذكرها وإيرادها في الإطار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي

إن البرنامج التغيير الذي تسهر الإدارة عليه شيء من عدم الاكتراث هو عمل شاسع واسع معقد كثير التفاصيل. لهذا فهو أهل لدراسة من قبيل ما قمناه

لذا علينا العمل بالمراحل وتقبل النتائج بثقة ورباطة جأش، وليس على طريقة ذلك الفلاح الذي سئل منذ مدة عن رأيه فيما آلت إليه الأمور فقال إنه يتمثل الحال على أنها "كارثة وطنية" إن تحجر التعصب والنقص الجوهري للأهالي هما مقولتان أكل الدهر عليهما وشرب.

ولا بد من الإقرار بالدور التنويري لدى كان للحضارة الإسلامي على هذه البقعة من الأرض، فإذا لاحظ البعض تخلف أهل هذه الأرض الحالي بالنسبة لجيرانهم فلا بد أن نتذكر ذلك ما الماضي هؤلاء من أمجاد تنطق بالعلم والفن والأدب والذوق والتأنق.

إن بربر الجزائر ليسوا أسوأ ولا أفضل من إخوتهم الأفارقة، والأمر كل الأمر يكمن في جوهرهم صوت الإيمان بالقلب والتصديق بالعقل بمدى جمال وعظمة المشروع الفرنسي على هذه الأرض إذا اقتيدوا بيد حازمة ولكن طيبة محبة، وخدعوا من قبل روائع حضارة لامعة ومن طرف "مغناطيس المصلحة" أيضا

فإنهم سيقتادوا صوب المأوى الفرنسي الذي سيشعرون بالعزلة خارجه، سيلجونه بثقة وسلام، يقتاتون من عبقريته الخالصة، ويتدفئون بناره الحية ويعيشون بتقاليده النبيلة ومبادئه السامية

بذلك سنكون بصدد تتويج قرون من الاجتهاد والعمل والإصرار. وسيكون الرابح الأكبر هو أمة لها ثقة دائمة في أبنائها، فضلها الأكبر يكمن في حملها إلى كل مكان وكل زمان الأعلام الباهرة للحضارة

الجزء الثاني

الحرب ضد الجهل

خطب ومحاضرات ألقاها نادي صالح باي

الأستاذ محمد المولود بن موهوب

أستاذ الفقه الإسلامي في المدرسة، والمفتي

المالكي لمدينة قسنطينة، حامل وسام الشرف

(مقتطفات)

الأهالي والحضارة

خطبة ألقيت بمناسبة تدشين المدرسة

سادتي،

لست من أولئك الخطباء الذين يملكون ناصية الكلام معبرون بإعجاز عن زمرة واسعة من الأفكار، بل إنني في شيء من الحرج بسبب حضور هذه الثلة المدركة اللامعة وحدها طيبتكم ورصانة وجوهكم ونظراتها يجعلان أمل أن يمتد بساط رحمتكم تحت خطوتي غير الثابتة.

إن تدشين هذه المدرسة الجليلة يمثل بالنسبة لكل واحد منا حدثا من أهم ما يكون، والنتائج المرجوة من تجمعات كهذه لا تخفى على أحد. إننا إخوة والإنسانية تأمرنا بالتعاون وبجعل الصالح العام فوق كل اهتماماتنا.

تلك هي الوسيلة المضمونة لتحصيل المساواة الحقيقية، التي
هي بمثابة المثلى لظهور حرية الفكر
الإنسانية! يا لها من كلمة رائعة ويا لها من هدية قل من
تقديرها حق قدرها ولكنها كافية إذا سكنت قلب امرئ واحد
كي تحيله أمة كاملة

المثال الإنساني

يميز الفلاسفة في الإنسان جزئين رئيسيين: الجسم المرئي والروح غير المادية، وكلاهما يتميز بميز به: للجسم لحم وعظام يتغطى به في حين أن الروح العقل والنفس. ولعبارة لهذا يعرف الإنسان أحيانا بالحيوان الناطق مع تعيين النطق كأشرف من يمثل باقي الخصائص.

كذلك يميز العمل في الإنسان جانبين رئيسيين: الكائن الإنساني عموما والإنسان الرجل في المعنى الضيق للكلمة.

الإنسان هو ذلك الذي يعي الحقيقة فيقبلها ويعي الخير فيطبقه ما استطاع إلى ذلك سبيلا. هذا المثل الإنساني هو وحده الذي يمكننا بالسعي صوبه تجاوز طبيعتنا، ولا نتراتب إلا على اعتبار درجة نجاحنا في هذا السعي، فإذا قلنا الشخص لفلاني أكثر انسانية من الآخر فإننا في الواقع نحدد المسافة بينه وبين الحيوان.

من خلال تطوره في العلوم والنشاط الفكري ومن خلال ما يقدم لإخوانه من المساعدة من خلال رحمته، عدالته وروح المساواة لديه يمكن للمرء وضع ذلك الإكليل النادر "السعادة"

العمل الفرنسي

إن الأمة التي تعطي أناسا كثيرين من الصنف المذكور أعلاه هي التي تتمتع من السلام بقدر ما تختزنه من هؤلاء، رجالها يكثر ورعاياها برداذون حبا وبوضع في عداد الأمم المتحضرة.

تماما مثل فرنسا التي تربيا من خلال العمل الصالح لمثلها الحاكم لعدم محبتها الفائقة

نحن في حاجة حقا إلى تبيان محاسن الحاكم العام إزاء المسلمين وعلى رأسها المدارس العديدة المنشأة لمحاربة الجهل، والد كل أشكال التفرقة ؟ وبالنسبة للمدرسة التي نحن فيها، كلكم تعلمون ماضيها المخزي فقد كانت مأوى كل "الحشايشية" وكل "السكارى" في المدينة، وكانت مصدرا لصنوف من التشويه والجهل والتعصب والغيلان والأشباح/كانت مدرسة للجهل أساتذتها ضعاف العقول

وها هو ذا المكان على ما ترونه اليوم عليه يحيلنا بما يشيعه من علم على بيت فيكتور هيقو .

"كل طفل نعلمه رجل نكسبه". أو على مقولة فولتير تلك: "إن أغلى هبة نقدمها للإنسان هي العلم"

هاتان العبارتان أليستا المنارتين اللتين يريد السيد الحاكم العام توجيه سفينتنا صوبهما ؟

لا ريب أنه لا سبيل للتحكم في القلوب سوى الخير و الحب. "أشعر بألم أحبك، قال أحد الحكماء" وأعده إلى سواء لسببين إذا ضل فالضلال يدين الإنسان".

الرجل نفسه قال "عندما يعرف الناس اللطف الحقيقي، ستزول سبل الشقاق. إن القلب الذي تملؤه يعين لحميع وصدقت بعض الأطباء شفت أناسا أكثر مما فعلته أدويتهم. فلنسرع الحمل عن الآخرين لنتخلص من أحمالنا" لقد قلت في كلمة قلتها لدى تدشين المكتبة الإسلامية "الخير قد ينجح حيثما تفشل الأسلحة"، ويمكنني اليوم الإقرار دون مخافة الخطأ بأن قلوب المسلمين قد صارت بفضل حرص السيد الحاكم العام ملك للجمهورية وبأن الميل صوب فرنسا قد فاق كل مرحلة.

كن كريما تملك القلوب كلها   فلكم فتت القلوب لكرم الأعمال

إننا نلاحظ أن الأمة المتحضرة هي التي يتقاسم أناسها مشاعر اللطف والعكس صحيح، ماذا يمكن لفعل الرأفة التي يفعل؟ لقد رفض الإسكندر المقدوني بعد هزيمة العرب في صحراء شبه الجزيرة أن يبل شفتيه من كأس ماء جاء به جنود ديوتون

عطش يكفي عمل مثل هذا كي تربح قلب الجيش كله وقد
هزمهم مطمئنين وعبر دمشق ثم المشرق كله

الرهبة عليه لا تمس الجوع أو الزهد في الاعمال ؟ ما أعنيه
هو نشر الافكار الثابتة بين الناس، هل بلغت فرنسا بوسائل اخرى
المكان الذي تتمتع به اليوم بين الأمم المتحضرة؟ إن التاريخ يرينا بدقة
أن عظمتها منوطة بكثرة رجالها العظماء وقلوبها النبيلة

التعصب والقبلية

أما أولئك الذين يرفضون رؤية الأعمال الخيرة التي تقوم بها القوات العمومية إزاء المسلمين، فلا بد أنهم لم يتساءلوا من قبل. "هل ما أفعله طيب أم خبيث ؟ عادل أم لا ؟ فيه شيء من الجمال أم لا ؟

أسئلة مثل هذه التي تحركها صوت الإنسانية الرفيعة، إلا أن في الانسان ما يدفعه دائما صوت الأسفل فيسميه الحكمة إلا أن القاعدة الإنسانية تفرض علينا أشياء مثل إن العالم يقود الجاهل، والقوي يقود الضعيف، والغني يعين الفقير، بهذا الشكل تعلو نفوسنا ويتزايد رصيدنا من الفضائل.

إن التعصب المشين مرفوض لدى النفوس الرقيقة ممثلو فرنسا بما لديهم من حب للخير وللحرية يرون المتعصب كشدة تهرب من قطيع الحضارة، وكعدو يريد المساس بأسوار البنيان الحضاري القوي، لأنه إذا كانت الحكومة ترضى لرعيتها الحياة، فالمتعصب لا يرتضي لهم سوى الموت

يقول شيكسبير: "ما تريد الحصول عليه بالقوة، يمكنك تحصيله بابتسامة".

أما سليمان عليه السلام فيقول "سعيد هو من يدرك الحكمة من الأشياء ثم يوظفها في حياته لتقوية ذكائه لأن هو ذهب نعوق ما يجنيه من فضل بتجارته"

إن من ينتقدون أعمال السيد الحاكم العام لأجل تقويم الجواب الجزائريين بالعلم والتكوين الذين يتمتع بهما الفرنسيون ما عليهم سوى تأمل دروس التاريخ، ماذا تعلمنا يا سادتي؟ إن أوروبا قد بلغت أوج التقدم في قرن لويس الرابع عشر الملك الذي أجرى إصلاحات ناجحة، و ستحدث جوائز للعلماء بنى مصانع كبيرة، شيد مدارس للفن ومؤسسات العلم، وبكلمة واحدة حول فرنسا إلى أكبر منارة حضارية في أوروبا

إن هذه المعطيات التاريخية قوية الدلالة.

ولنتأمل ما كتبه أرسطو على التحفة الذهبية التي شكلها لاسكندر على شكل كرة أرضية ذات وجوه هي الشعوب والأمم على كل وجه كتبت قاعدة حكيمة، ومجملها: "العالم حديقة أسوارها الحكومة"، "الحكومة قوة يحرسها القانون"، "القانون طريق ينتهي الملك"، "الملك إمام بعينه الجيش"، "الجيش تقوية الثورة، الثورة مصدرها الشعب"، "على الشعب أن يكون خادما للعدالة"

هل توجد قواعد خير من هذه السياسة العلم؟ حزب الخير العلم واضح، ومنتقدوه من مجيء الشر والجهل يبنون

الجهـل

المسلمون جهلة لا نقاش ولا إنكار. لا نستطيع مدح هذه الحال المزرية التي ستقودهم صوب الهلاك في حين هم تحت وصاية فرنسا، صاحب أوسع دائرة استعمارية في إفريقيا الحاكمة على امتداد يقول 7 ملايين كلم[2]، أغلب من يأهلها من المسلمين.

المسلمـون الطيبـون والمسلمـون الخبيثـون

إن من يدفعون الشعب المسلم صوب البقاء في جهله يعدون أنفسهم مسلمين طيبين بالارتكاز على قصص خرافية وأحاديث مكذوبة ينسبونها إلى أنفسهم. إن الإسلام أقوى بكثير من هؤلاء الدجالين إلا أن هذا لم يمنع أن كثيرا من مستوى هؤلاء قد صدرت تنسب إلى الإسلام نفسه، والرسول الكريم نفسه يقول إن العلم روح الإسلام، يا إلهي ! أ نحن مجبرون على الاختناق تحت ضغط الجهل؟

أيها المسلمون ! لا حياة بلا علم، لا علم بلا بحث لا بحث بلا رغبة قوية في التسامي وهذا الشعور لا وجود له لدى أمة لها مستواها الثقافي متدن. لذلك فالتعليم والتنوير واجبنا جميعا، تلك هي السبيل الوحيدة للارتفاع بالمرء فوق درجة الحيوان وهي نفسه السبيل التي هجرها إخواننا

تعاليم الرسول (ص)

الرسول يقول إن العلم كنز مفتاحه، فاسألوا إذا لأن السؤال منافع لأربعة: السائل، المسؤول، المستمع، والأقربون.

يا لها من تعاليم التي يعود فضل ثقافة الجدود الزاهرة، لقد استفادوا منه وأفادوا الغير والتاريخ على ذلك شهيد، تعاليم الحرية، مبادئ البحث العلمي الذي يجعلنا نطلب الحق أنا وُجد، حكمة بفضلها وعن السابقون جوهر الدين المناقض تماما للتعصب

إن التعصب الإسلامي لم يبدأ إلا منذ الحروب الصليبية. هؤلاء الذين أناطوا بالإسلام ما هو نقيضه. هم وحدهم مسؤولون عن هذا الوضع، إن حججهم البائدة للشتات لا هدف لها سوى جعل الإسلام دينا متعصبا متوحشا أبا لكل جهالة أخا لكل قساوة وأبا لكل تكاسل، يخترعون خزعبلات يلبسونها لباس الدين

ويدعون بين العبد وخالقه، لسوء الحظ أعداء الإسلام اليوم أكثر عددا من أبنائه - أيها المسلمون إني لأقولها باسم الحق والله إن لصانعوا شمائنا !

أسباب التخلف

لقد هجرنا العلوم والفنون والتزمنا بالعزلة، إننا لا نبذل جهدا للتأسي بالأمم المجاورة في تقدمها. إن ديننا يمنعنا سبق من قيادة العالم والمؤسف أننا نرى والأمم الأخرى تتمتع بما يحث ديننا عليه، والأدهى والأمر أننا صرنا نكفر ونشيطن نتائج تلك الحضارة، لذلك تصيبنا صواعق سوء أفكارنا وأعمالنا

أي عذر لنا وقد تسرب الخمول إلى عقولنا ؟ أي مبرر أرائك والكسل يمنعنا حتى من الاستفادة من المبتكرات العصرية ؟ أيها الإخوة هل ستختارون الجهل الذي يبعدكم عن كل شيء ؟ عند ستقولون دفاعا عن أنفسكم ؟ لقد خالفتم قرآنكم ورسولكم وابتعدتم عن تقاليدكم ونأيتم عن علوم زمانكم. كفوا عن هذه الخطايا. خذوا مثل جيرانكم وكفوا عن عبادة الجهلة، لقد حان الوقت للتجمع والاتحاد لأجل دفع عجلة العلم ولن تنتهي بتعلم

تحير من التناهي بالسبب، بل العجز حصان لا يركبه سوى الخسران.

صوب حضارة العمل

فلنعمل بشجاعة إذن "الذكاء يصلح الحال دون إضاعة وقت في البكاء" صدق شكسبير، فلنحارب الجهل ولنتحالف ضد الكسل والجوع، عدونا الحقيقي

فنتذكر أن حكومة الجمهورية الفرنسية لو أنها أرادت بقاءكم على حالكم من تقهقر عقلي لما بنت كل هذه المدارس ولما تجشمت كل هذه المتاعب لتكوينكم، أيود قتلكم من يعطيكم أسلحة الحياة. استيقظوا وأيقظوا إخوانكم واعترفوا بالفضل

شكرا للحكومة الفرنسية وممثليها

شكرا لكم أيضا أيها المسلمون الذين لم يستدرجوا خارج دائرة الحق، ولنعذر الآخرين متذكرين كلمة الفيلسوف : "لا ينبغي الحكم على شعب برمته، بل إنني لا أجرؤ حتى على اتهامه"

ثم إن المعلم وحده حي ولا حيلة للميت ولو حبشت الجيوش من الموتى في مواجهته، لو عاد من ماتوا منذ ستين لمروا ما صار من ودّ بين المسلمين والفرنسيين لاندهشوا وإني لأجزم أن الأمور ستسير إلى الأفضل.

لقد ذكرت الحاكم العام مرارا وسبقت ذكر السيد المفتش العام للمدارس، كل ممثلي الحكومة وكذلك كل الموظفين والسلطات التي تشرف بحضورها هذه الاحتفالية

يحيا العلم وأهله وليسقط الجهل وأتباعه !

حضارة الوفاق

محاضرة ألقيت بنادي صالح باي

سيداتي، سادتي،

إن اجتماعا كهذا لهو من الأهمية كل منا إنه ليدل على أن مجتمع الأهالي قد ولج مرحلة جديدة من الوفاق والسلام، إنه مؤشر على خطوة كبيرة على درب التقدم، ودليل قاطع على أن مجهودات الحكومة الحكيمة المتنورة لم تكن هباء.

هذه المجهودات أيها المسلمون، رأيتموها يوما بعد يوم إلا أنكم ستستحسنونه أكثر في المستقبل فكونوا واثقين في المستقبل وفي هذا الرجل الذي تلقى مهمة نقل أقداركم من الظلمات إلى النور

سادتي، يتفق جميع الحكماء على أن الإنسان المتحضر إنسان لا يستطيع العيش بمفرده لحاجته إلى المجتمع وكلمة "تمدن" الدالة على الحضارة دالة على سكنى المدينة.

الحضارة إذن هي المصطلح الذي يميز مجتمعا أشخاصه كيسون مؤدبون همهم العمل من أجل الصالح العام. إنها تتماشى

مع فكرة التجمع في حين أن التوحش يعترض عبث كل ما يعمل على رخاء البشرية.

إنه نقيض كل المبادئ الضرورية التي تتكئ عليها المجتمعات، إنه ترك القدر بين يدي الصدق وبكلمة إنه اللاتضامن

لا أحد منا إذن بمكنه الاستغناء عن اخوته العالم مفيد للجاهل والغني للفقير والسيد لخادمه والعكس صحيح والامر نفسه في كل مجالات النشاط البشري.

اما أولئك الذين ينطرحون أمام تقلبات الصدق دون القيام بواجباتهم ازاء المجتمع والذين يتبجحون بالدين ويتظاهرون بالزهد في الحياة فهم كما يقول بعض الحكماء شبيهون بشعر الابط الذي لا دور له سوى تجميع الأوساخ والروائح النتنة. لذلك فعلينا هدايتهم من ضلالهم العميق.

فالشعوب سارت في طريق التقدم بالعمل وبالعمل وحده بلغوا السعادة والعمل هو المصدر الوحيد للثراء، الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام يقول . "أفضل الاعمال أدومها" . والكتاب المقدس يقول "حركوا أيديكم وسيفتح الرب لكم أبواب الثروة". ويقول محمد مرة أخرى "إن الله يحب العامل ويكره العاطل" . في

حين كان يقول الخليفة عمر لصحبه "لا يقعدن الواحد منكم
قائلا الله هو الرزاق، فأنتم تعلمون حق العلم بأن السماء لا تمطر
ذهبا ولا فضة" وكان يضيف "يكفي أن يقال لي هذا رجل
كسول حتى أحتقره"

ترونا كم أن أسلافنا كانوا يقدرون العمل فلم نال الكسل
من أسلاف هؤلاء إلى هذا الحد

إن الله قد خلق الإنسان إلا أن بلوغ الكمال مهمة الإنسان
وحده والإنسان الذي يظل عند مستوى الحيوان ليس حيا بالمعنى
الحقيقي للكلمة ها هو ذا امرؤ القيس رغم أنه جاهلي إلا أنه
يتحدث عن العمل قائلا :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليلا من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

ما أروع الدروس التي يقدمها أمامنا هذا الرجل الجاهلي
لأفهمنا معنى الكرامة الإنسانية

سادتي،

تعلمون أن الإنسان أشرف مخلوقات الله في هذه الأرض
وأشرف ما فيه قلبه، مسكن الإيمان والعقل والحكمة، فكيف

لهذا الخلق الشريف أن يملأه الجهل ولخبائث تلك أمراض القلب
التي علينا محاربتها دون هوادة، تلك نجاسة لا بد من التطهر منها

كان الرسول (ص) يقول "ثلاثة أشياء تمس الناس آدم: كثرة
الشح، العجب بالنفس ودناءة الروح" ، كم حذر أبو حامد الغزالي
من هذه الأمراض، والرقي بأرواحنا والتحلي بالفضيلة

كان الرسول (ص) يقول "طلب العلم فريضة على كل مسلم
ومسلمة وكذلك اطلبوا العلم ولو بالصين" إن التكوين المعمق
فريضة علينا جميعا إن أهمله الشعب كله تصير بالضرورة فرض
عين فإذا قام بها جزء من هذا الشعب صارت فرض كفاية بذلك
فالأمر بالمعروف واجب كل المسلمين وبالقياس فإن حافظ على
التعاليم جزء لا بأس به من المجتمع فإن هذا المجتمع لا يصير
كافرا إذا لم يكن كل الناس مؤمنين كذلك هي الحال
بالنسبة للعلوم فعلينا التزود منها على تنوعها ما استطعنا إلى ذلك
سبيلا

إن الإسلام ليتبرأ ممن نراهم يدعون إلى مقاطعة الأدوية لعلاج
الأمراض بحجة القدر، إن الإسلام يؤمن بأن الله هو خالق الخير
والشر معا، ومن آمن بالله فليؤمن بهذه الأشياء أيضا

سادتي،

لقد حاولت بكلمات موجزة إعطاء صورة عن حالكم وصورة عن بعض حقائق الدين الإسلامي، عقيدته، أحكامه، تعاليمه وتحريماته

... بخلاصة ... ترى؟ فلنستنتج ولنقل أولا إن الأمة مثل امتنا يحرف تاريخها على مواجهة الحقائق!

الحق ... الحق أننا كسالى! الحق أننا في ضلال! مصرون على الانحطاط وجاهلون لدور الإنسان على وجه الأرض، لقد أهملنا التربية ... وتلك هي وسيلة التقدم، هذه التربية هي التي تسمو بأمة وتحط بأخرى، والتي سمت بالأوروبيين وآلت بنا صوب الحضيض

... لكم أيها المسلمون، أنتم الذين تعيشون مع الجهل في ... بربكم الذي تعبدون وبحق رسولكم الكريم، ألا ترون الخسر ... الذي أصاب ثرواتكم وأنفسكم معا؟ هذه الثروات التي تراكمت على مر القرون بفضل أسلافكم وجهودهم المضنية والتي [illegible] بين عشية وضحاها

... ترون الحيف بأم العين في كل يوم، ومع ذلك [illegible] ... ثم ازوررتم من الإصلاحات التي جاءتكم مع

المعمرين. ما هذا الكسل؟ إلى متى هذا الخنوع؟ لقد بلغتم حضيض الحضيض!

ماتت قلوب قصرنا لا نفكر في إخواننا ولا نشعر بمن يعاني من الجوع ولا نشعر تماما لأنانيتنا بأي شخص يشعر بأنه خصاصة

أسلافنا يقولون إن الساكت عن الحق شيطان أخرس "ألا ترون أثرياءنا مرهوبين بأنفسهم ينسون الفقر ولا يرحمون الجهلاء؟ ألوانهم زاهية أفواههم مملوءة مشيتهم خيلاء. مظهرهم كبرياء. يتكلمون بفخامة -دلالة الجهل- يملؤون الشوارع بسياراتهم وعطالتهم دون إلقاء أدنى نظرة على الكادحين المحيطين بهم من أبناء دينهم

أيها المسلمون. ماذا تفعلون بهذا الدين الذي يقول إن من لا يرحم الغير ولا يرق لعذاب الغير، مهما كان اسمه، لونه ودينه ليس مؤمنا؟ دين يعلم التكافل والتعاون ويدعو إلى التراحم بل إلى رحمة الحيوان أيضا. ويمنعكم حتى من كسر حجر إن لم يكن وراء ذلك نفع ما!!!

لهذا يدعونا الإسلام ويأمرنا بالتعاون على البر والتقوى، ولكن هذا مستحيل الحدوث إذ كنا في مجتمع لا يؤمن بالعمل الجماعي للصالح العام، علينا يا إخواني أن نرقى بأنفسنا. و...

تترجم أعمالها لشعور بسرور، رد المعروف الذي أسداه لنا مجتمع وأسدته لنا عائلاتنا.

لقد استفدنا ولا نزال نفعل من أعمال آبائنا وأسلافنا فماذا نترك لأخلافنا؟ عن من لا يعمل، هنا، بيننا، عنصر لا فائدة ترجى منه، ولا بد من اجتثاثه. إن هذه حكم جميلة وعاها الإسلام ودعا إليه دائما، ومن المؤسف أننا لم نعد نعيها جيدا، وإننا تخلينا عنها بل إن منا من يقول إن العمل ليس واجبا وأن التفاوت فيه سنة إلهية. وإنهم ليسوا مجبرين على بذل مجهود بفضل مولدهم فحسب وإن الثروات تتوزع دون اعتبار للعمل والجهد، وأن العالم قارب نهايته ولا فائدة ترجى من أي شيء كان. فليعلم هؤلاء أنهم ليسوا من الدين في شيء، وأنهم على خطأ كبير.

إن الله خالق الناس، قد وهبه كل الخيرات أظهر له بعضها وأخفى البعض الآخر بهدف دفعه إلى السعي والعمل لتحصيل الميسر والوصول إلى درجة أن يسكنه الفضول الجميل كما التزم بالحدود والضوابط، والذي يدفعه صوب هذه المخفيات، ثم وزع الله سبحانه الثروات بعد ذلك بحسب العمل، وبحسب إقبال العباد عليه

لم نسمع أبدا بأن أسلافنا منذ الرسول (ص) حتى بغداد والبصرة وقرطبة وسمرقند قد أقنعوا عن العمل مكتفين بالأيمن بأن لله مسير أعمالهم ومن قال بما شابه هذه النزهات فهو جاهل وإن ادعى علما ويكفي التذكير بحديث الرسول (ص) "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

إن هنالك لسوء الحظ من يفسر هذا التواكل وهذه الجبرية ثم يبشرها ويدعو إليها وأصدق تشبيه لهم ما أورده نبي الله عيسى عليه السلام إذ قال إنهم كتلك الصخور التي تعترض النهر فلا تفعل سوى منع التيار من التقدم.

لقد مس هؤلاء الناس الدين والمجتمع الإسلامي أي مساس إلى درجة خلق مجتمع كسول سلبي. إن تواجدهم بيننا هو الذي خلف هذه الرخاوة التي صرنا نشعر بها حولنا والتي تذهب إلى حد التخلي التام عن واجباتنا والنسيان الصريح لتعليم ديننا التي صرنا نقرؤها دون فهم، وذلك رغم قراءتنا مرارا للآية "أفلا يتدبرون القرآن". لماذا ترى جاء هذا الكتاب؟ أليس الهدف إحياء العلوم والدين؟

إن من يحفظونه عن ظهر قلب كثر بلا شك، إلا أنه من المؤسف أنه لا يفهمونه، ولا يتبعون تعاليمه. ثم إذا رأوا من يدرس

لجغرافيا، أو الطب أو الطبيعيات والتاريخ والنبات والحيوانات والتشريح، وكلها علوم بالغة الأهمية بالنسبة للإنسانية، اصطنعوا عدم الاكتراث، وقالوا إن كل ذلك بلا فائدة للإنسانية قبل أن يدنو الأمر تماما، فإن سألتهم: ماذا تفهمون من قوله تعالى "إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" أو قوله -جل وعلا- "وفي أنفسكم أفلا تبصرون"؟ قالوا: إنهم لا يخوضون في تأويل الآيات لعسر الأمر وتعقيده، ولخوفهم من مغبات الفهم السيئ والتأويل الذي يوقع صاحبه في الحرام. لقد أحالوا الإسلام، دين التسامح السني إلى ديانة جافة مغلقة ومتعصبة

فكيف تريدون، سادتي، التقدم بهذه الطريقة؟ أنخرج يوما من حالة التبعية هذه بهذا الشكل من قراءة النصوص بلا فهم؟ ولا أقول هذا لمن يسمعونني فحسب بل القول يعني الجميع.

أعلم جيدا أن حب الدين من طبائع المسلمين، ولكننا نحب الإسلام دون إدراك ما يحويه من جمال وخير وخلق، إن الحب غير كاف، لا بد من التشبع من هذا الدين والتعمق فيه.

لهذا لا يحق لنا لوم من يصموننا بالتخلف، الحضارة، إنها الإسلام عينه، لأنه يأمرنا بمواصلة العمل، بالمحافظة على صحتنا، بالبحث العلمي، بإشاعة المعرفة حولنا والتخلص من الأحقاد، ومن

الأحكام السلبية على من يخالفنا، الأمانة، الثقة، الاعتدال، الاستقامة، الخير والإحسان للغير. أليست هذه هي قيم الحضارة؟ أم أن الحضارة في أعينكم ليست رديفة إلا للزنا والخمر؟

هل تعلمون ماذا يقول القرآن؟ "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض" ويقول مضيفا فيما بعد "وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا". تأملوا الأوربيين المحيطين بكم وتنسوا نموذجهم لاحظوا تكوينهم ووحدتهم ثم انظروا إلى فرقتكم وجهلكم. تأملوا سعيهم صوب الكمال وتطورهم ثم انظروا صوب جهودكم أم أن عيونكم صارت لا ترى وعقولكم صارت لا تتأمل.

لقد تركتم تربية أولادكم وتركتم مصالحكم ومع ذلك تضحكون وتلهون وكان الأجدر بكم البكاء وجيوش الظلام والجهل تحيط بكم من كل جانب.

إن الحكومة الفرنسية تساندكم دائما، إلا أنها لا تستطيع العمل وحدها على تطويركم والدور دوركم كي تعينوها على هذه المهمة النبيلة. فلا تدبروا ولا تزوروا مقبلين صوب من يجرونكم وسط الباطل باسم الدين الذي يشوهونه لأن هؤلاء المدعين هم أعداءكم الحقيقيون أنتم ودينكم الإسلامي

رفضوا بتصحيح السوء وبحثوا عن الفضيلة أيا كانت بواسطة تكوين قوي لا بواسطة تعاليم أساسها التأويل الخاطئ والتعصب المدرج، دعوتكم من القصص التافهة للمسيح الدجال لأن ثقتكم كلها تكمن في الأرض التي تحرثون، احرثوها وازرعوا فيها الذهب ثم ضعوا ثقتكم في التكوين الذي سيقوي عقولكم ويضمن لكم مستقبلا أفضل

لديكم قرآنكم وأحاديث رسولكم وكذلك تعاليم سلافكم التي قادتهم صوب المجد فاتبعوها إذن والحكومة من جهة أخرى معكم قلبا وقالبا لا هم لها سوى تطويركم! ما مبرر المثل بدن ؟

توحدوا أيها مسلمون وليحب بعضكم بعضا وكونوا يدا واحدة في هذه الجزائر الجميلة تحت راية السلام والوئام والعروة الوثقى الإسلام إلى جماعة أحوج من الجماعة إلى الإسلام".

الأمانة والعرفان

خطاب شكر للسلطات الفرنسية

سيداتي، سادتي،

لكم أود التعبير عن بالغ سعادتي لهذا الحفل المعبر عن حبكم، ولكم أود وجدان الكلمات البليغة التي تؤكد للحكومة التي كم شرفتني، مدى عرفاني وخلاصي واحترامي

ديني لفرنسا لن يجد له هنا مترجما. إن هذا الوسام الذي ترسمونني به لهو يعني الكثير من الأشياء. كما يسمح لي بسعادة أن أرى هنا حولي نخبة مدينتك وهي تشرفني حق التشريف أبي لأرى فيم تفعله فرنسا مع أبنائها الكرماء مع الجزائريين قويي العزيمة في مجال الأخوة والإنسانية ومع كل من يعمل لاجتثاث الشقاق والشر

إلا أن علامة ثقة مثل هذه تذكرني خاصة بواجبي، هذا الواجب أقبله برضا وشهادة بنبر دربي فيه من سبقوني وسأقتفي آثارهم دون أسف ولا غضاضة.

شكرا لكم بسدى مدير المدرسة يا من عرف كيف
بكسب ود ... وبكم السيد عورلبو انتم من ترأسون بسماحتكم
المعهودة اللجنة الاستشارية لمذهب ولكن السيد الامين العام يا من
يصعب بسماحة ذكائكم ووقتكم في خدمة تحسين اوضاعنا
ولكم خير عريري ... يا خير ظهيرا لي في معركتي ضد
الجهل شكر على لغتكم الفصيحة التي أخشى انه لا قلمي ولا
لساني سيجدان ما يكفي من البلاغة لشكر ما صدر عنكم
بالسكن الملائم

سادتي،

هل مرار ان السيف والقلم رفيقان وفيان يمكنهما تحقيق
كل شيء، فعلا فمن يجهل ما من شأن قلم فصيح يشعر بأن القوة
تظاهره وتقف على صفته [illegible] يفعل ؟

الحكيم، أقصد رجل القلب الذي لا يعرف سوى التقاليد
الطاهرة للعمل والذي يعيش بسلام لا هم له سوى خير بلاده والذي
لا شغل له سوى رخاء امته

هذا الحكيم ما الذي يمكنه أن يأمل أكثر من الحلف
الفعال للقوة والفكرة، القوة التي تفرض نفسها والفكرة المقنعة،
فما فائدة الثراء لبلاد احشاؤها تتقطع وأعضاؤها في شقاق ؟ أليس

الخير كل الخير كامن في القلب، اليس الواجب هو قدح العقل
وابهار الارواح ؟ اليس هذا هو العلاج الحقيقي، لصح الشريعة،
الصح الخصب ؟ هذا الفتح، بلا شك لا يمكنه ان يتحقق دون
بعض العسر.

بالنسبة لي [illegible] السادة [illegible] اعترف بذلك ممن يعلم احتقار
الانسان الذي لا يكون كلامه ترحمات [illegible] لفكره لقد كنت
اعد من قبل [illegible] في العقيدة مستسرا غير مامون، ومع ذلك
ورغم المرارة كنت اشعر في داخلي بقوة تفتأ تزداد فتثير طريقي
وتحررني على السخرية من كسلهم وتداعيهم وبلادتهم كنت
استمد القوة من رغبتي في تحسين حال اخواني بتعريبهم منكم
سادتي الفرنسيين، و لرغبة نفسها تمسكي في اعتراف [illegible]
الحكومة التي تعمل الكثير الكثير لاجلنا

لانه اليوم هنا في حضرة قوتين [illegible] الله لهما الاجتماع، فانه
يتوجب علينا ان نعمل جاهدين من أجل غلبة العلم على الجهل،
و الحضارة على التوحش.

على امتداد مسيرتي دعوت للخير، وعرضت افكاري بكل
حرية منتقدا خصومي، فجرني الكثير وخاصمني البعض، [illegible]

موجز خطيب بجمهور جديد، وبحب قلوب لا عهد لي بها، وصل لي صدى حتى من أولئك الذين كنت يائسا منهم

لا أدعي لنفسي شرف إنجاز عمل هو عملكم سادتي، أكثر مما هو ينسب إلي ما يملأ نفسي شعوران: شرف الانتماء إلى شملكم والرغبة في المواصلة، ما أفعله هو فقط الإشارة إلى بعض النجاح الذي حققناه وأنا واثق من أنه من دواعي سرور المدرسين نجاح مهامهم التدريسية، وشيوع النور الذي يحملونه وتبدد ظلام الجهل والتعصب من سماء المجتمع الاسلامي

فمسيرتكم أيها السادة المسيرة ناجحة ولولا بعض العقبات لكنا قد حولنا كل شيء عن حاله. ولكننا مسرعين في مسيرتنا على طريق العلم والحضارة فلندع جميعا بالنصر والبقاء لجمعية صالح باي

أما أنت، سيد ريب يا المؤسس الفعلي للجمعية الأهلية، فأنا عاجز عن تعداد مزاياك الكثيرة، وأمانتك في العمل، ونزاهة إدارتك وحزمك وكلها صفات جرتنا جرا صوب احترامك وحبك.

لقد فتحت جمعية صالح باي مرحلة جديدة من الرخاء والسعادة، وكانت درسا واضحا لتذكير المسلمين بواقعهم

وبالحماقات المحيطة بهم ودواء فعالا لبعض الأمراض الأخلاقية التي كانت -ولا زالت ولو جزئيا- تنخر جسد الجزائر

لهذا فلسنا نستغرب نظرات الحقد، ومشاعر الغيرة، والأقلام التي تمضي في إلحاق أبشع الصفات بأروع الناس وأفضلهم وأبعدهم عن النقيصة والرذيلة وتلك هي سيرة ضعاف النفوس ومرضى القلوب وعبيد الرذيلة والكارهين للبشر منذ بدء الخليقة

وليعلم هؤلاء الحاقدون أن حقدهم لم يزد سوى تقوية الجمعية، وتعزيز صفها وتحسين صورتها لدى الفئات العمومية، وليعلموا أن أعضاءها وكلهم أقوياء، سيأتون بعززهم للتشجيعات وتزيد نزاهة مسيريهم وتواضعهم وزهدهم في الأشياء عزما على المواصلة والمضي قدما صوب أهدافهم.

وستعكس مرآة المستقبل صورة نصر الجمعية النهائي، وهو نصر ستعترف به فرنسا أيضا رغم كل ما يقال في حقنا وستكون آنذاك إزاء مسلمين نشطين عاملين جديين مجتهدين، واعين بحقوقهم وواجباتهم، أوفياء، كرماء، كأسلافهم المحبذين، يفضلون الموت لأجل وطنهم المتبني على خيانته وإهانته

هي كلمات أود أن تسمعها فرنسا برمتها وهي تسمعها من خلال ما تبدو عليه صورتكم أنتم أيها السيد الأمين العام، يا موضع

ثمنا وتقديرنا. لقد شعرت وانتم تعلقون الوسام على كتفي بأنني

اقف امام الجمهورية الفرنسية جمعاء

ثقوا، سادتي، ان هذا الصليب جاء ليتموضع قرب قلب يعشق

الحق والعدالة ويأمل من اعماقه ان يرى هذين الشعبين يسيران جنبا

الى جنب تحت الراية نفسها، والشعور بالأخوة يملؤهما

لن اغفر لنفسي ان انهي كلمتي دون توجيه كلمة شكر

لشيخ بلدتنا السيد موريبو الذي نكن له اسمى مشاعر الاحترام

والامتنان.

وليمنّ الله علينا بنعمة ان نرى بيننا دائما رجالا يهمهم شأننا

الى ان يدخلوا قلوبنا بلا امكانية الخروج

أسباب الانحطاط

تعاليم القرآن

المحاضرة الثانية الملقاة في جمعية صالح باي

سيداتي، سادتي،

لو سئلت الليلة من أسعد الناس، لأحسست بنشوة "أنا" وكيف لي ألا اكون كذلك، وأنا أحظى بشرف المثول أمام هذه الوجوه النيرة المتميزة بأذهانها الثاقبة، امام أبناء العلم، أولئك الذين يضطلعون بمهمة الإيحاء لأبناء فرنسا بحبها، إن ارتج علي فاعذروا ضعفي وافرزوا في ذلك عمق احترامي لكم وعظمة صورتكم في نفسي. تفضلوا سادتي علي بالاستماع وامنحوني أذهانكم وقلوبكم لكي تملأوا فراغات قد احملها لما في من نقص ووهن

تعلمون جيدا كم أن التعاون جميل للخير وكم ان الاتحاد بين رجال الحكومة والمدرسين و الشباب جلالة كله للرخاء المادي والمعنوي للانسانية على اختلاف المهام المنوطة بكل زمرة من هؤلاء. فاذا كان حب التكافل والخير العام جُبلة جبل عليها الناس

احمعون هذه عند المسلمين من علامات صحة الدين، بل ان علي بن ابي طالب كان يقول انه لا سعادة للناس إلا بمقدار ما أو دعوة من ثروتهم في حق طلب الخير للأرض التي يسكنونها

وقد جاء عن الأصمعي انه نزل على أعرابي ذات يوم فطلب منه شيئا من الحكمة فقال إن أردت معرفة عقيدة الرجل فانظر عن رأفته بإخوانه وحبه لبلاده، ونقرأ في القرآن "تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان"

فمثلا نقرأ "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"، هذا الرجاء لا يحمله شخص واحد، وقد صدق من قال : ماذا بإمكان الإنسان وحده أن يفعل حتى في قلب الجنة ؟ ماذا يستطيع العاقل وسط الجهلة ؟ قد نكون، إخواني آتين من عقيدتين مختلفتين إلا أن تواجدنا على الأرض نفسها يجبرنا على أن نكون متعاونين لأننا نحب هذه الأرض بقلب واحد، ونفعل خيرا يجلب علينا خيرات تشملنا معا

إذا كان الله قد وزع الأرزاق في الأرض، ودفن بعضها بعيدا عنا. فإن له سبحانه حكمة من ذلك، هي أن يدفعنا للسعي لأجل تحصيلها في الأرض وفي البحر، ثم لطلب ما ينقصنا عند الغير في حين يطلب الغير عندنا ما لا يملكونه بهذا الشكل يحصل

التعارف، إضافة إلى ما في السفر والترحال من تطوير للمعارف وتقوية للتجارب لأجل هذا لا بد على بعض البشر أن يحتمي من طريق التقدم وهذا ما كان دنليون يشير إليه حينما قال "إن فرنسا تعمل جاهدة لتطوير وتحضير الأمم والبلدان، إلا أن كثيرا من هؤلاء لا هم له سوى ردع عملها وكسر ثيابها. ولولا ذلك لكنا بلغنا أعلى القمم وأبعد النقاط الممكنة"

يحيرني كثيرا أن أرى أناسا يمنعهم عماهم من رؤية الصالح العام، بل انه ليبدو أحيانا وكأنهم يلومون لله -عز وجل- على انه خلق العالم بهذا الشكل وليس بشكل آخر، أو ينتقدون تعدد الأجناس والألوان والأصول والألسن وكأنهم يجعلونه -سبحانه- مسؤولا عما بين هؤلاء من فرقة وشقاق وتناحر وحروب "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة"، ليس هذا الخلق عبثا، فدعوا نواميس تمضي لحكمة يعلمها.

يقول علي -كرم الله وجهه- . "الاسلام دين عظيم جميل، ولكم أن تؤمنوا بما تشاؤون". إن احترم كل العقائد وكل الأفكار لهم علامة من علامات التحضر

صدق الشاعر القائل :

يقولون أم خالد كافرة فقلت ذروها كل نفس لدينها

ذلك هو واجبنا، أيها الإخوة، على اختلاف ديننا وأمتنا. لأننا نبني وطن واحد ومهمة لحضارة مشتركة، والمبدأ التكافل الاجتماعي وحده بيننا

الجهل والتعصب وحدهما جعلا الإنسان عدوا لأخيه الإنسان. أكاد أتمثل كذلك الذي رأى هنالك على الأكمة شكلا غريبا وحده، فلما اقترب اتضح أنه إنسان، ولما اقترب أكثر وجده شقيقه ابن أمه وأبيه! ليتنا شكسبير صادقا وهو يقول "إنها الأنوار الضبابية المحيطة بنا التي تجعلنا لا نرى الخير المحيط، وتحجبه عنا، ونمشي السعادة حتى نظن أنها لا وجود لها"

نحن في حاجة إلى التوسع في موضوع تخلف الأهالي، لا أبدا إن الأمر لواضح بيّن لا يحتاج إلى بيان

من منكم يا ترى لم يعني انحطاط المسلمين الجزائريين ماديا ومعنويا ؟ إن قراءة بسيطة في تعاليم القرآن ومعانيه فيما يأمر به وما ينهى عنه، ثم نظرة سطحية صوب الحال المزرية للجزائريين، تعصبهم، كسلهم، تراخيهم، وتواكلهم، يجعلنا نقسم بأنهم المسؤولون عما لحق بهم، بل إنهم مصدر كل شر من الشرور التي يشتكون منها: الأنانية، الجهل الكبير والتضحية بالصالح العام

لأجل الصالح الخاص، تلك، سادتي، هي الأسباب الكبرى لانحطاط المسلمين!

تأملوا، سادتي، معي القرآن ولننظر معا إن كان لديانة تعادي الحضارة المعاصرة والتقدم، وهل هو كتاب يدعو الجبرية والتواكل واضطهاد المسيحيين مثلما يدعي البعض؟ العكس هو الحقيقة إنه يدعو إلى الدراسة ومحبتها، بترغيبها للعلوم الشرعية وعلوم الدنيا عموما. إنه الكتاب الأول الذي أصر على التعاون والتآزر والتضامن.

لا، سبب انحطاط الأهالي ليس قرآنهم، لأنه لو كان سببا للانحطاط لما سمح لأوائل المسلمين ببناء الحضارة الزاهرة التي نعرفها. الفرق كل الفرق هو أن أولئك تجشموا عناء الفهم الصحيح الذي لا بد منه وإلا فلا معنى للكتاب برمته

لقد وضعوا اليد على ستة أجزاء لكل منها تعاليم جمة مفيدة

الجزء الأول يحث العمل، وهو يحوي ما ينيف عن 700 آية

الجزء الثاني يدعو إلى محاربة المحرفين والجهلة ودعاة الباطل الذين هدفهم خداع العقل من خلال زرع بذور الأكاذيب أكثر من 1000 آية.

الجزء الثالث يتناول عمران الأرض وبناء الممالك، وأسباب الانحطاط، أو أسباب اندثار أمم وازدهار أخرى، ويضرب هذا الجزء المثل للأجيال المقبلة

الجزء الرابع يتناول الممارسات اليومية والسلوك الاجتماعي، اللياقة، طاعة الوالدين، والاعتبارات الواجب التسلح بها إزاء الأصدقاء والجيران ...الخ أكثر من 700 آية

الجزء الخامس موضوعه الاسلام عموما، والقواعد الخمس التي هي قواعد سلوكية وعقيدية مبنية على دروس في النظافة والاستقامة والتكافل الإنساني، فالصلاة تتطلب النظافة التامة، والصوم طهرة للبدن، والزكاة إعانة من حيث الغني في حيث الفقير وقد مدح الرسول ﷺ مزاياها دون كلل وما الهدف من هذه التعاليم السنية؟ الهدف الرئيسي فلسفي، إنه جعل الأقوياء يرفقون بالبسطاء والضعفاء، والمواساة بين محظي القدر ومن هم أقل حظوة، والهدف الآخر مادي، إنه تحسين وضع البشر

للحج فوائد كثيرة، على رأسها حب السفر، وتطوير العلاقات الدولية (والتجارة أساس) الكل سيستفيد من فترة الحج إلى درجة أن هنالك من دو شمه الحريرة من يربط كل الآمال على أيام الحج

الجزء السادس خاص بالعذاب الذي سطر للمخطئين، إنه قانون مدني وقانون عقوبات فيه كل الضوابط

ماذا ينقص القرآن إذن؟

تاريخ، أدب، علوم، حقوق، كل شيء يجد له في القرآن شرحا مليا دقيقا بأسلوب أنيق جدا، أليس هذا العصر أكثر دلالة على الحاجة لهذه القيم من كل عصر مضى؟

لقد أضاع المسلمون مذاق الأدب والفنون والعلوم وتركوا اللياقة واللباقة وانغمسوا في أعمال يتفق العلماء والحكماء في كل زمان ومكان، ويتفق خاصة رسول الإسلام على وصفها بسبب الانحطاط. هذه الأعمال سبعة. ولكل منها أضرار متزايدة الخطر

أولها غياب تلك الحكمة وتلك القدرة على التمييز. قد يصير المرء يربط كل ما يحدث بالعين والحظ السيئ، ويعجز عن معالجة أشيائه، وتمهيد مستقبله انطلاقا من حاضره ثم يضطر إلى الانحطاط والرذيلة لعلاج تقلبات الدهر.

الثانية هي تلك الزيجات الحقيرة المتحللة القهرية تبقى إحدى أدهى مشاكل مجتمعنا.

ثالث السمة هي ممارسة الزنا والانحرافات الجنسية المتنوعة.

والنسب في ذلك تأخر سن الزواج، وينجر عن ذلك تضييع المال والصحة، أما النتيجة على المستوى الاجتماعي فهي تدهور النمو الديمغرافي وتحطيم العائلات الشريفة

في الدرجة الرابعة يندرج الكسل والخمول والسلبية وحب السلبية والنوم والأخطر في الأمر هو ما ينتج من تدهور قيمة العمل الاجتماعي، وكلنا نعلم قسوة العدد

يلي ذلك خطر الكحول والإدمان عليه، وتناول مختلف أصناف السموم البطيئة. شكسبير يشبِّه المخمور بالحيوان المتوحش، وأن أتحرج من المساس بالحيوان بتشبيهه بهذا الإنسان المنحط.

المثل الإسرائيلي القديم يقول محقا "حينما يعجز الشيطان عن دخول بيت ما يرسل المشروبات الكحولية لتمهيد الطريق"

قد ندرج بيسر ضمن هذه المساوئ تعداد الزوجات، وكلنا نعاين يوميا شرور الغيرة بين الزوجات، ونرى ما ينجر من فقر وبؤس، ثم أضيفوا إلى هذه التشكيلة جهل الزوج غير المتعلم وابتعاده عن روح العدالة والمساواة، والشر كامل

سابع السمة هو ظاهرة وصول الجهلة الأميين إلى مناصب مرموقة في الدولة، كان الأفضل يا أيها السادة أن يظل هؤلاء عند الحالة الحيوانية التي يصفها داروين في كتابه الشهير، إذن لكانوا أقل شرا !! ثم إنه لا بد من اختيار أقلهما إن خيرت بين شرّين

سادتي،

آفتنا الجهل والفقر، وتلك هي حال الأمم كلها، بعد التقدم، التخلف والتقهقر، إلا أنه واجب علينا التذكير بمجهودات الإدارة الفرنسية لعلاج بعض الأمراض، فالجزائر اليوم تسير، تحت الوصاية الحكمية الكريمة، على الدرب المستقيم، من كان ليأخذ بأيدينا لو لم تفعل فرنسا؟

لا بد من توحيد الجهود، ووضع الأيادي بعضها في بعض للمضي قدما. أما أنا فواثق تمام الثقة من حسن نوايا الفرنسيين إزاءنا، والأدلة التي توضح ذلك تفتأ تزداد وتتكاثر، لا ينكرها إلا جاحد، وخاصة منذ مجيء شخص بعينه إلى الجزائر. أقصد السيد جونار، الحاكم العام.

إن فرنسا، الأمة المستعمرة القوية، مثل الصياد الذي لا هم له سوى توجيه الطريدة صوب مكان الطعم، أو مثل ذلك الأب الذي يتبنى ابنا فيهبه تربية وحنانا ينتظران ما يهبه لابنه من صلبه وابنتي

لأقول هذا الكلام دون مهابة ولا وجل، وذلك لعلمي أن الحقيقة التي أنطق بها هي حقيقة تدركها وتستوعبها عقول منصفة ثاقبة كالتي تشرفني في هذا المجلس بحضورها.

أسألكم بربكم، هل كنتم فيما مضى مثلما أنتم اليوم ؟ أكان يمكننا الاجتماع لمناقشة أمور دنيانا كما نفعل الليلة؟ أكان للرئيس صوت أمام المرؤوس أو للعالم أمام الجاهل ؟

لا والله لا، لم يكن لأي شيء من هذا وجود ! إذا كان صحيحا أن الحكومة روح الشعب جسمها فإن الشعب الجزائري عضو لا شك فيه من الجسد الفرنسي الكبير. فعلا، ألسنا رعايا فرنسا ؟ إن كلمة "رعايا" هذه تثير بعض ردود الفعل، ولكنها ستتطور مع الزمن بلا شك، والعضو، سادتي، مريض، لذا فعلى جميع الجسم التحرك.

قد يقول قائل إن من الأمراض ما سيتأهل البتر، ولكننا نسمح لأنفسنا فنأمل في إمكانية إنقاذ الأهالي مما هم فيه من ظلامية، وأملنا يرتكز على ما نتحسسه من الرغبة في التغيير ومن التغيرات البطيئة ولكن الفعلية التي هي بصدد التمظهر في مجتمع الأهالي، لذا فأنا أرجو، باسمي وباسم جميع أهالي الجزائر، من السيد الحاكم العام وكل السلطات الفرنسية أن يواصلوا المهمة

التي باشروها، وأخص بالذكر جانب المهمة المتمثل في التعليم المزاوج بين اللغتين : العربية والفرنسية، فالفوائد التي جناها متعلمو اللغة الرسمية لا تعد ولا تحصى.

إنه من الضرورة بإمكان أن يتعلم الأهالي نفس التعليم الذي يتلقاه الفرنسيون.

أيها المسلمون، ألا تذكرون محبة أسلافكم للزراعة ؟ خلفائكم فضلوها، وأثرياؤكم مارسوها وشعراؤكم تغنوا بها، والله حبانا بعقول لا تقل عن عقول الآخرين، وأنعم علينا بدوق من النعم، فلم يبقى لنا سوى مباشرة العمل وترك الخمول.

بالعمل وحده نضمن كرامتنا، العمل يغير كل شيء، والتراب لا قيمة له إلا متى عملنا عليه، وبهذا الشكل فقط نبلغ مالم نكن لنبلغه أبدا.

بلا عمل ولا صبر، أن يمكن للإنسان ترويض الحيوانات ؟ بل وحتى الحشرات، كالنحلة ودود القزّ بلا عمل أكان يمكننا أن نحلم بالسيطرة على الجماد وتحريكه ؟ ها نحن أمام السيارة والمنطاد... كل ذلك نتائج الفكر البشري، والذكاء، تلك الذخيرة التي لا بد من المحافظة عليها وحفرها إلى أبعد الحدود، كما كان يطلب منا رسول الإسلام(ص) فاتحا الباب بقوله : "أنتم أدرى

"بشؤون دنياكم" إن ما يقصده، وأنا أتكلم على أساس كوني مفتيكم، هو أن كل جيل يعي تحدياته الخاصة.

لم تحرث الأرض بالمحاريث الخشبية والحيوانات في حين توجد الجرارات؟ إن الإسلام يختار دائما أيسر الطرق وأنفعها متى تم تخييره، فدوره الانتصار للعقيدة الصحيحة لا بالفكر والاعتقاد فحسب، بل بالأعمال أساسا، وكل ذلك يدخل في ما يصفه الله بإخراج الناس من الظلمات إلى النور. أما أولئك الذين يريدون أن يفرزوا في القرآن كل شاردة وكل واردة، فهم لا يعون التطور، ثم يأتون فيقولون: "أن الأمر الفلاني لم يفعله الرسول(ص) والأمر الآخر لم يكن موجودا أيام الخلفاء، والشريعة الإسلامية لم تتطرق للقضية الفلانية، إذن فهذه الأشياء ليست من الدين!".

إن هذا التدين الساذج يفسد ما يأتي لإصلاحه؛ فالمطلوب هو أن أحد المذاهب لا بد أن يتطرق منذ عشر قرون بكل التفاصيل الممكنة لأمر حديث لم يطرأ إلا منذ سنوات، فنعرف حكم الإسلام في الكهرباء والإنارة والمغناطيس!! إنه لأمر تعيس ومضحك أيها السادة.

أصرّ مع ذلك على أنه لا يحق لنا ونحن نذكر هذه النقائص أن نقنط من حال الأهالي، فالمسلم عموما، وأهالي الجزائر تحديدا

يقظون جدا، علينا فقط أن نعرف من أين نأتيهم: الفكرة القوية والكلمة الطيبة والإصرار على التعليم والتكوين.

إن المدارس قد بدأت تأتي أكلها، والأهالي الذين بدأوا يتخرجوا من المدارس الفرنسية هم خير برهان على ما نذهب إليه، والفضل كل الفضل يعود إلى الحكومة الفرنسية التي نشد على يدها ونناشدها المواصلة والإصرار في هذه المهمة النبيلة.

أيها المسلمون، ألا زلتم في ريب من النوايا الفرنسيين؟ ألا تكفيكم كل هذه المدارس والطرقات والجسور، والأمن الذي صرنا نعيش فيه، أليست كافية كلها لإقناعكم بالخير الذي جلبته فرنسا معها؟ وأنا أعطيكم موعدا بعد سنوات حينما تنتشر الآلات الزراعية فيعم الرخاء الذي لم نشهده من قبل.

انهضوا أيها المسلمون، هل خروجكم من نومكم الذي طال قرونا صعب إلى هذا الحد؟ أتمثل الحكومة التي حكمتنا، وأتمنى لكم أن تفعلوا مثلي، كذلك الملك الذي اجتمعت حاشيته تسائله عن فضله ونبل أصوله، وجمعهم في اليوم الموالي وأخرج سيفه قائلا: "هذا هو نبل أصولي" ثم رماهم بالذهب وأعطاهم أفخر اللباس وقال: "هذا هو فضلي، والفضل في فضلي آت من قوتي".

❖ أنشودة ❖

ترنم بها تلامذة نادي صالح باي بمناسبة توزيع الجوائز وهي من إنشاء السيد ابن الموهوب وعرف بها جوق موسيقى السيدين محمد ابن كرات وبسطا نجي

العلم يحيى بالعمل ... وقاتل المرئ الكسل

فسافروا نحو الأمل ... وحاربوا كل بليد

يا أيها الابنا الصغار ... انتم لنا نعم الثمار

جدوا لتدركوا الفخار ... فعاشق العلم سعيد

فعمروا المدارسا ... وجانبوا الاباليسا

وزينوا المجالسا ... بالعلم واطلبوا المزيد

سيروا كغيركم إلى ... نيل مناصب العلا

لا تقنطوا فالله لا ... يرد من خيرا يريد

السنمو فرع الكمال ... الستموا بنا رجال

بالمال تهدم الجبال ... كذلك الجهل يبيد

شجاعة شجاعة ... عند الهجوم جملة

فان فيكم دولة ... لرفع قدركم تريد

يكفيكم منها العمل ... والمال في كل محل

لحرب جهل فداحل ... قولوا لها هل مزيد

الفهرس

الجزء الثاني: الحرب ضد الجهل

(خطب ومحاضرات ألقاها نادي صالح باي الأستاذ محمد المولود بن موهوب)